جامعة مولاي إسماعيل
UNIVERSITÉ MOULAY ISMAÏL
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES

شعبة

الدراسات الإسلامية

وحدة الفكر الإسلامي

الفصل الثاني

د.عبد العزيز ديدي

الموسم الجامعي:

2020-2021م / 1441-1442 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم.

تقديم.

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصبحه أجمعين وعلى كل من اقتفى أثرهم واستن بسنتهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، أما بعد:

يُعتبر الفكر الإسلامي مظهرا من مظاهر إبداعات العقل المسلم في طريق تفاعله مع قضايا الوحي الرباني، وانطلاقه بهديها لتفسير قضايا الوجود الإنساني، وقد تميز هذا الفكر عبر مسيرته التاريخية بالاستمداد المباشر من معين الوحي المعصوم - كتابا وسنة – الذي كان على الدوام زادَه وعتاده ومُوجِّهه في كل ما خاض غماره من بحار القضايا والمشكلات على اختلافها وتنوعها، وقد استطاع هذا الفكر بهذا الاستمداد الدائم من معين الوحي وفيضه أن ينهض بجملة تحديات جسيمة عرضت للأمة قديما وحديثا، بفضل ما رسمه العقل المسلم من مناهج علمية دقيقة ذَبَّ بها عن حياض الأمة وحَصَّنها من كل خطر يتهددها سواء من الداخل أو من الخارج، كما ترجم هذا الفكر طبيعة التصور الإسلامي لقضايا الوجود الكوني والإنساني، وطفق يقاوم بها كل التيارات والمذاهب الهدامة التي سعت وتسعى حتى يوم الناس هذا إلى التأثير في هذا العقل المسلم عقيدة ومنهجا وسلوكا.

وخليق بالذكر أن الفكر الإسلامي كان دائما مرآة تعكس واقع الأمة، كما كان نبضه مُجسدا لهمومها ومعضلاتها في القديم والحديث، كما شكل رواده في كل مرحلة من مراحل تاريخ الأمة حملةَ لواء التغيير واليقظة وبث الوعي في صفوفها؛ خاصة في المراحل العصيبة التي تُخترق فيها حصونُها، وتستهدف فيها ثوابتها، ومن نافلة القول: إن تلك التحديات تبقى قائمة في كل جيل على تعدد صورها وتغير مظاهرها، لكنها تسبح في فلك واحد هو فلك التدافع الحضاري، مما يستدعي تجديد آليات الدفاع عن قيم الإسلام ومبادئه في كل عصر، خاصة في عصرنا الحديث الذي عظم فيه حجم تلك التحديات، وأرخت بظلالها على جزء كبير من حياة المجتمعات المسلمة المعاصرة.

التعريف بالفكر الإسلامي

تمهيد

لا يُماري أحد في أن أعظم ما أكرم الله به الإنسان وشرفه به في نطاق إرادة الخلق أن وهبه العقل المفكر المدبر حتى يميز به بين صالح الأشياء وفاسدها، حسنها وقبيحها، ودعاه إلى التفكر والاعتبار والتأمل، وزكى له ذلك بالفطرة التي خلق فيه عونا لهذا العقل الذي هو مناط الخطاب في ذات الإنسان على تحقيق مصلحته، سواء كان هذا الخطاب خطابا إلهيا سماويا أو إنسانيا اجتماعيا يجري بين بني البشر في نطاق ما تعارفوه من أعرافهم وعاداتهم وقوانينهم، كما لا يختلف اثنان في أن هذا العقل وإن كان اسمه واحدا عند الإنسان لكن مسماه ومنهج تفكيره مختلف باختلاف الأفراد ومرجعياتهم ومعتقداتهم ومبادئهم وبيئاتهم وكل ما يحيط بهم، فالبشرية من آدم عليه السلام إلى يوم الناس هذا قد انطلقت بعقولها كدحا بحثا عن حقائق وإثباتا لمبادئ وسعيا لتفسير ظواهر مختلفة، لكنها كانت وما تزال تترنح بين الوصول أو انقطاعه حسب طبيعة المرجعية التي تتحكم فيها، وكل منها يعمل على شاكلته، فمنها الموفَّق المسدد السائر إلى غاية، ومنها الذي يعيش في العبث ويرمي في عماية.

وإذا كان العقل مرآةَ المعتقدات والمرجعيات والمبادئ التي يعيش عليها الإنسان، فإن منهجه في التفكير يبقى دائما خاضعا لقيودها وإملاءاتها، وتكون نتائج تأمله ثمرة لها، فتنتظم نظرته للنفس والآخر والكون والخالق.. في بوثقة من الأفكار التي تُشكِّل في مجملها مقوماتٍ ومحددات لطبيعة الإدراك الإنساني، هذا الإدراك الذي قد تَدِب إليه أسباب الوهن، أو قد تسري فيه روح المنعة والقوة تبعا لمجال الرؤية وأدواتها، ولذلك كانت طبيعة المرجعية التي يتوكأ عليها العقل ويستند إليها الفكر حاسمة في طبيعة ما يُشيده من صروح الحقائق صحة أو بطلانا، فلاحا أو خسرانا، ولذلك لا يستغني طرفة عين ولا أقل من ذلك عن مرجعية تزيل عن بصره كل غشاوة، وليس ثمة ما يترشح لمثل هذا سوى مرجعية الوحي الذي هو هداية الله للبشرية.

1- مفهوم الفكر الإسلامي.

تُحيل دلالة الفكر في أصل الوضع اللغوي على النظر والتأمل قال ابن منظور: "الفَكْرُ والفِكْرُ إعمال الخاطر في الشيء"[1]، وقال ابن فارس:" الفاء والكاف والراء تردُّدُ القَلْب في الشَّيء. يقال تفكّرَ إذا ردَّدَ قلبه معتبِرا. ورجلٌ فِكِّير: كثير الفِكر"[2]

أما عن نسبة هذا الفكر إلى الإسلام فمعناه أنه لابد له أن يسبح في فلك هدي الإسلام، وألا يخرج عن مقتضيات هذه الشريعة منطلقا ومنهجا وغاية، ومن هنا يُعرفه أهل الاختصاص بأنه: "كل ما أنتجه فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان، والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا"[3]، وهو أيضا " المحاولات العقلية من علماء المسلمين لشرح مصادره الأصلية؛ القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، إما تفقها واستنباطا لأحكام دينية، وإما توفيقا بين مبادئ الدين وتعاليمه وبين الأفكار الأجنبية، وإما دفاعا عن العقائد الصحيحة أو رد العقائد المنحرفة"[4].

وبالجملة فمفهوم الفكر الإسلامي يحيل على "مجموع جهود العقل المسلم في سياق تفاعله مع حقائق الوحي والكون بالاستناد إلى مرجعية الوحي نفسها كتابا وسنة في سبيل تفسير قضايا الوجود، حتى يتلاءم مع طبيعة حقائق الوحي وغاياته ومقاصده من التشريع والخلق، تحقيقا لما أنيط بالإنسان من مهمة الاستخلاف وإقامةً لصرح التعبد في حياته".

ومما يستفاد من التعريفات السابقة:

-مركزية الوحي باعتباره المرجعية العليا لهذا الفكر.

-دور العقل في فهمه والاهتداء بمبادئه وقيمه.

-مرجعية المنطلق والمنهج والغاية شرط أساس لاعتبار هذا الفكر إسلاميا، ولقبول نتائج التفكير فيه.

---

1 - لسان العرب لابن منظور مادة "فكر":65/5.

2 - مقاييس اللغة، مادة "فكر": 357/4.

3 - تجديد الفكر الإسلامي، د. محسن عبد الحميد:41.

4 - الفكر الإسلامي في تطوره، محمد البهي:6

- الفكر الإسلامي اجتهاد بشري مسدد بتوجيهات الوحي لتفسير بعض الحقائق والمعارف في نطاق مبادئ الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا.

2- الفكر الإسلامي وإشكال المصطلح.

لما كان مفهوم الفكر الإسلامي متوجها من حيث معناه إلى جهود العقل المسلم المسترشد بهدي الوحي في سبيل بيان الحقائق والمعارف وفق مقتضيات الرؤية الإسلامية، إثباتا لها، ودفاعا عن أسسها في وجه كل فكر هادم لأركانها، فإن هذا المصطلح لم يكن من حيث إطلاقه محط إجماع الباحثين المعاصرين في هذا الميدان، فنشأت إلى جانبه مفاهيم أخرى ومصطلحات أخرى رام أصحابها التعبير عن نفس المعاني، فزاحمت هذا المفهوم في الإسم لا في المسمى، ورأينا بعض أرباب هذا الفكر وأعلامه ينتقدون بعض هده المصطلحات من حيث استيعابها ودلالتها على المراد، فآل بهم الأمر إلى اعتماد ما قارب هذا المفهوم من مثل "المذهبية الإسلامية" و"التصور الإسلامي" و" العقل الإسلامي" و" الثقافة الإسلامية" و"نظام الإسلام أو النظم الإسلامية"، و "الحضارة الإسلامية"....

والملاحظ تقارب هذه المفاهيم وتكاملها، وإن كان لا ينكر وجود بعض من وجوه الاختلاف في منهج التناول بينها، وطبيعة القضايا الجزئية المثارة في كل منها؛ إلا أنها تنصهر جميعها في بوثقة الرؤية الإسلامية المشكلة لمقومات العقل المسلم، لكن ينبغي التنبيه إلى أن جل الباحثين في هذا المجال قد جنحوا إلى اختيار مفهوم الفكر الإسلامي مفهوما دالا على تلك الرؤية فاكتسب هذا المفهوم قوة في الاستعمال رجحت كفة تداوله أكثر، وإن لم يسلم هو الآخر كذلك من انتقادات الباحثين[1] لا سيما في ملحظ شبهة اختلاط نتاج الفكر الإنساني مع حقائق الوحي الثابتة، لكنها تُدفع بأدنى وجه من وجوه التأمل فيما بين العنصرين من الفوارق وهو ما سنبينه في العنصر التالي.

3- الفرق بين الفكر الإسلامي والدين أو الوحي الإسلامي.

من المفاتيح الكبرى لفهم حقيقة الفكر الإسلامي أن نحدد وجوه الارتباط الوثيق له بالوحي المعصوم كتابا وسنة، وهو محدد منهجي كبير في طبيعة التعامل مع نتاج هذا الفكر في كل مراحله؛ بدءا من عصر الرسالة ووصولا إلى واقع هذا الفكر في عصرنا الحالي، كما أنه مدخل أساس لفهم

1 - أنظر ما كتبه الدكتور محسن عبد الحميد في" المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري": 18.

طبيعة هذا الفكر وخصائصه في كل مرحلة، لنصل انتهاء إلى بناء منهج سديد في تقويم مناهج التراث الإسلامي في مختلف مجالاته، والتي هي نتاج هذا الفكر في طريق تفاعله مع قضايا هذا الوحي، وقضايا هذا الكون على السواء، ولَكَم أبعدت النجعةَ بعضُ الدوائر الاستشراقية ومن حدا حدوها من المتغربين حين وقع لها الخلط فحملت على هذا الدين من منطلق بعض مظاهر هذا الفكر ومدارسه، فتبلغت للطعن فيه وفي مبادئه الثابتة القطعية بما أنتجته بعض المدارس التي شطت عن المنهج السليم في الفكر.

ومن أهم وجوه هذا الفرق بين الفكر الإسلامي والدين الإسلامي نذكر:

- الدين الإسلامي دين قطعي لا مدخل فيه للعقول من جهة إرساء مبادئه وكلياته وحقائقه ومقاصده، فهذا أمر تكفلت به الشريعة رأسا ليجتهد بعد ذلك العقل بتوجيه من الوحي نفسه في تنزيل تلك المبادئ والأسس على واقع الناس.

-مبادئ هذا الدين مبادئ ثابتة راسخة لا تَخْلَق (لا تتقادم) بمر العصور ولا يُتصور فيها تبديل أو تحريف.

-لما كان الوحي ربانيّ المصدر ثبتت له العصمة في حقائقه، فهي منزهة عن الخطأ أو التناقض، وإذا تصور العقل ذلك فمرده إلى قصور إمكاناته ومحدودية طاقته لا إلى ذات الوحي وحقائقه[1].

-الوحي حاكم على هذا الفكر موجه له بمبادئه وقيمه.

-الفكر الإسلامي هو الجهد البشري لفهم حقائق هذا الوحي.

-لما كان الفكر الإسلامي جهدا بشريا كان من لوازم هذا الوصف نسبية حقائقه وتعددها أحيانا، وهو ما يفسر وجود بعض الاختلافات في قضايا عقدية أو فقهية أو سياسية... فيما ترك فيه للعقل مجال للبحث والتنقيب، أو ما كان مرغما –في بعض الأحوال- على بيانه من حقائق هذا الوحي دفاعا عن مبادئه وأسسه[2].

---

1 - يراجع في هذا السياق ما كتبه سيد قطب رحمه الله في "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته": 41 وما بعدها، وكذا ما كتبه الدكتور يوسف القرضاوي في " خصائص الشريعة الإسلامية".

2 - ليس كل ما أنتجه العقل والفكر الإسلامي كان بإرادته واختياره، بل قد دفعت الأمة من خلال علمائها ومفكريها في بعض الأحوال والظروف العصيبة إلى الدفاع عن معتقداتها ومبادئها وتصوراتها بسبب غزو المذاهب الهدامة التي سعت إلى محاولة اجتثاث عقيدتها وأصولها من خلال العمل على التشكيك في كثير من الحقائق التي لم تكن في يوم من الأيام مثار جدل أو نقاش في الساحة الإسلامية، وهنا برزت بعض المذاهب التي إنما نشأت لغرض الدفاع عن أصول الإسلام بغض النظر عن سلامة منهجها ومدى نجاحها في بلورة رؤية تعبر كل التعبير عن جوهر تصور الإسلام لقضية بعينها.

-يبقى هذا الفكر غير معصوم من الخطإ والزلل والانحراف، وإن وقع ذلك كله أو بعضه فلا ينبغي نسبته إلى الوحي كما تبين قبل.

-يبقى هذا الفكر متأثرا بما يحيط به من الظروف والملابسات، فهو يستجيب لحاجة عصره بما يتيسر له من فهم الوحي، ويبقى قابلا للتكميل والإتمام والنضج عبر مر العصور بما يفتح الله لأهل كل جيل وعصر في طبيعة القضايا التي تقبل ذلك.

-موقع العقل من الوحي موقع التابع الذي ينظر من وراء ستار الشرع لا المتقدم عليه "والعقل إنما ينظر من وراء الشرع، فلا بد من هذا الانتظام".[1] لكن ذلك كله يكون بمنهج التكامل بالنسبة للفكر الإنساني، فالوحي نفسه حث العقل المسلم خاصة والبشري عامة على التأمل والتفكير وأمده بالعواصم من الزلل والانحراف، ولا رشاد لهذا الفكر بغير اعتماد منهج التكامل بينهما – النقل والعقل - لأنه " لا أحد منهما يمكن أن يكون بديلا للآخر، ولا أحد منهما يمكن أن يغني عن الآخر، وكل منهما من عند الله تعالى، فالنقل هبة الله تعالى للبشرية ليهديها سُبُلَها، ويُخرجها من الظلمات إلى النور[2]، والعقل هو الطاقة المُستقبِلة للوحي القادرةُ على تَلَقِّيه وفهمه، والاستفادة به، وتنزيله على أرض الواقع"[3]

-لا رشاد في المنهج لهذا الفكر ما لم يعتصم بعروة الوحي الوثقى، فلا يستغني عن توجيهه قيد أنملة، يقول الإمام الغزالي:" العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج".[4]

4- الفكر الإسلامي وإشكال المرجعية والمنهج.

سبق الحديث عن المحددات المنهجية لمسمى الفكر الإسلامي في علاقته بالوحي، وهو ما يجعلنا أمام إشكال المرجعية والمنهج المحددين لسمات وخصائص هذا الفكر كما سيأتي بيانه بعد،

1 -الموافقات للشاطبي: 30/1.

2 ـ للدكتور طه عبد الرحمن كلام نفيس في هذه الجزئية؛ جزئية مصدرية الشرع والعقل أو ما يسمّيه ب " المصدر الأصلي " للعنصرين يقول " أما المقابلة بين العقل والشرع من جهة "المصدر الأصلي "، فهي تعني أن المصدر الأصلي للعقل هو الإنسان، بينما المصدر الأصلي للشرع هو الإله؛ وهذا لا يصح بإطلاق، نظرا لأن العقل الإنساني، في أصله، صادر عن الإله صدور القول الشرعي عنه، فهو المُوجد لهما بدون منازع". من كتابه: "سؤال العمل": 90 ويُنظر تفصيل وجوه هذا الكلام ص:91 وما بعدها.

3 ـ خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، د. عبد المجيد النجار: 15.

4 ـ معارج القدس في مدارج معرفة النفس للإمام أبي حامد الغزالي: 57.

لكن من المهم جدا أن نتبين في هذا المقام بعض محددات هذا الفكر، فليس كل المناهج التي رامت فهم الوحي وسعت إلى بيان حقائقه داخلة تحت مسمى الفكر الإسلامي، وليست كل التيارات والمذاهب التي رجعت إلى النص الشرعي رجعت إليه بروح الافتقار، بل يوجد في ساحة الفكر عموما ما استبطن أصحابه قديما وحديثا نيات إخراج هذا الوحي عن معانيه الصافية المبثوثة في نصوصه، فاجتهدوا في تحريفها وتشويه معالمها، بل ومن تلك المذاهب من تبلغ للطعن في هذا الدين بقلب حقائقه عقبا على رأس، فكانت من معاول الهدم لحصون هذا الدين، ومنها من رجع إلى هذا الوحي بقصد تجاوزه وتقديس العقل في مقابله، وبيان انحسار معانيه في جيل التنزيل، وتجريده من معنى الهيمنة على قضايا العصور التالية للوحي... ولذلك فإن نتاج هذا الفكر لا يصح نسبته إلى الإسلام حتى ينتسب إليه شكلا ومنهجا وروحا وغاية، ومن هنا يمكن القول إن هذا الفكر إنما تصح نسبته إلى الإسلام حين:

-تكون المرجعية التي ينطلق منها المفكر مرجعية إسلامية صرفة.

-حين تتوافق نتائج هذا الفكر مع الثوابت القطعية ولا تخرم منها أصلا.

-رجوعه إلى الوحي ينبغي أن يكون بروح الافتقار لا بنية الاستظهار.

-لا يُمنع المفكر المسلم من النظر فيما انتجه العقل الإنساني خارج نطاق الوحي، سواء كان من باب العلوم الكونية أم الإنسانية، لكن بشرط أن يتوافق ذلك مع مقتضيات الوحي وثوابته، فحين يأتي "دارون" "بنظرية التطور" ويثبت أن أصل الإنسان قرد، فإن هذا المعتقد يتعارض جملة وتفصيلا مع ثوابت المسلم القطعية التي لا تقبل شكا حتى ولو قال العالم كله بضدها، لأن المسلم يمتلك من خلال الوحي في هذا الموضوع الحقائق اليقينية التي تدحض أمامها كل جهد بشري في هذا المجال. ولذلك يبقى الانتفاع بما أنتجه الفكر الإنساني مقيدا بما سبق ذكره من الشروط.

-لا يعدّ ما كتبه المستشرقون عن الإسلام من الفكر الإسلامي؛ لأنه صدر من مرجعية أخرى وتحكمه في الغالب مناهج ومقاصد يتغيى أصحابها – غالبا- الوصول إلى نتائج محددة سلفا ومحاولة البرهنة عليها، وحتى في حال إشادة المدارس الاستشراقية بالتراث الإسلامي فإنها –في الغالب- لا تألو جهدا في تجريد الوحي أحيانا من قداسته، أو النبي الكريم من حقيقة رسالته، فتنسب إليه العبقرية والنجاح في القيادة بعيدا عن تأييد الوحي وتسديده.

-لا يُعتبر ما يكتبه المتغربون الذين تسربلوا بلباس الفكر الغربي، - لا يعتبر – من الفكر الإسلامي في شيء، لأنهم تأثروا بمبادئه وعقائده منطلقا ومنهجا فالتقوا معه نتيجة، لأن ما تنتجه هذه المدرسة لا يكاد يسلم من السعي لنقض عرى الوحي، وتقويض أركانه.

5- محاذير تتهدد هذا الفكر.

حتى يَسلَم هذا الفكر في منهج تلقيه للوحي، لابد له أن يكون بهدي الله بصيرا، وألا يذهب به الغرور العقلي مذهب التسور على الوحي، أو إخالة إمكان تجاوزه مهما تبدلت الظروف والأحوال، أو الاستعاضة عنه بما جادت به أحوال الزمان، أو أبدع فيه الإنسان الذي لا يقرأ صفحات هذا الكون أو ويفتح علومه باسم الله الخالق، ولعل سيرورة هذا الفكر التاريخية قد سطرت على صفحات هذا التاريخ قديما وحديثا خروج مذاهب ومدارس واتجاهات عن حد الاعتدال في التعامل مع هذا الوحي، فآل بها الأمر إلى مصادمة حقائق هذا الوحي، فزلت بنتاج فكرها الأقدام، وضلت في ثنايا منهجها الأفهام.

كما أن من أسس رشاد منهج هذا الفكر الإسلامي ألا يقيم معركة وهمية بين العقل والوحي كما أقامها غير المسلمين، حين صار العلم والدين عندهم لا يجتمعان على حقيقة واحدة، فكان أن انزوى الدين الذي من المفروض أن ينير العقل ويهديه سبل الرشاد، واختفى من مظاهر الحياة، والنتيجة أن تفلت العقل من عقال القيم والأخلاق والمبادئ التي تعطي للإنسان معنى لحياته الإنسانية، وتَجردَ الإنسانُ الغربي في زمن العولمة والإمبريالية المتوحشة من كل سمات الآدمية، وسَمْتِ البشرية.

وقد ظل الفكر الإسلامي الرشيد في جل مراحله محافظا على هذا التوازن الفذ بين إمكانات العقل وحقائق النقل، فكان بهذا قد خط لنفسه منهجا فريدا وهو "المنهج الذي لا يَذهبُ به الغرور العقلاني إلى الحد الذي يُنكِرُ فيه ما لا يستقل العقل بإدراكه (...) [إنه] المنهج الذي يَعقِلُ النقلَ، فيغدو فيه تصديقُ النقل برهانا عقليا، تلك هي حقيقة منهج الإسلام. ولهذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي ـ تجاور النقل مع العقل ـ في سبيله للوعي وتحصيل المعرفة وهذا التجاور ليس تجاور السكون والانفصال (...) وإنما هو تجاور الزمالة والمؤاخاة والائتلاف والتآزر والتساند والاجتماع إلى حدٍّ { جعل } العقلانية الإسلامية مُتَدَيِّنة، والنقلَ الإسلامي عقلانيا، وقد تفرد المنهج الإسلامي بهذا الإنجاز"[1].

1 ـ معالم المنهج الإسلامي، الدكتور محمد عمارة: 63.

الفكر الإسلامي: النشأة والتطور(1)

تمهيد

نشأ الفكر الإسلامي وتخلّق في رحم الوحي المعصوم منذ مبعث الرسالة، من خلال الدعوة التي حملها الوحي نفسه إلى هذا العقل بضرورة التفكر والتدبر، أو من خلال بيان مركزية العقل نفسه في فهم حقائق الإسلام وتوجيهاته، أو من خلال إناطة التكليف به، وهي مستويات خوطب فيها عقل الأمة العام، فضلا عن خطاب آخر تعلق بالعقول الخاصة للأمة من خلال علمائها ومجتهديها ممن وُكلت إليهم وظيفة الاستنباط والإفتاء، خاصة فيما كان من طبيعة هذا الوحي يقبل ذلك؛ من قبيل نصوصه الظنية في دلالاتها، والتي أوجبت على العقل المسلم العالِم اقتحام حمى البيان فيها عن الله وعن رسوله بما يتحقق لهم به وصف النيابة عن الشارع والتوقيع عنه باسم شرعه، وغيرها من الوظائف التي ينوء بحملها سائر أفراد الأمة. ولذلك فإن نشأة هذا الفكر قد بدأت حركتها مع هذا الوحي تفاعلا مع حقائقه.

ولئن كان العقل المسلم قد انطلق في رحلة الفكر والتفكر من عصر الرسالة، فقد غدا عبر مر العصور يُراكم تجربة في مختلف المجالات التي لها تعلق بالحياة الإنسانية، فبدأ العقل المسلم بهدي الوحي يصوغ له مناهج ونظريات تُعبّر عن طبيعة رؤيته لكل القضايا إن في عالم الغيب أو الشهادة، وبدأت تلك المناهج تُختبر في ساحات الفكر، إثباتا لأسسها، وتدافعا مع غيرها من النظريات والمعتقدات الباطلة أو المنحرفة التي أحاطت بالأمة من خارجها أو من داخلها، فوجد العقل المسلم نفسه أمام تحديات عميقة في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي، فرضت عليه ضرورةً أن يبني تصوره للحياة وفق مبادئه وقيمه، فيُخرِج للناس وهو الحامل لمشعل الرسالة العالمية الخاتمة منهجا تهتدي به سائر العقول.

إن الحديث عن هذا الفكر من حيث نشأته وتطوره، لم يكن عبر تاريخ الإسلام على درجة واحدة من التوهج واليقظة والوعي، بل قد أتت على الأمة أحيان من الدهر استُلبت فيها إرادة هذا الفكر، ورَكَن إلى التقليد والجمود، ليس فقط في مجال واحد هو الفقه كما هو شائع منتشر، بل إن العقل المسلم في كل مجالات الإبداع الإنساني والحضاري قد أخلد إلى الأرض وخَبَتْ فيه جِذوة النظر فيما بين يديه من الوحي، أو الاعتبار بما في السنن الاجتماعية والتشريعية، بل والكونية من

العبر، تلك السنن التي لا تتخلف في إظهار نتائجها وثمراتها للعاملين أو المتقاعسين على حد سواء، وفي مثل هذه الظروف وقف العقل المسلم – في دهشة أحيانا - يتابع تقدم غيره من العقول في سلم البناء الحضاري، وذلك في مختلف المراحل من تاريخ الأمة قديمها وحديثها.

أما عن نشأة هذا الفكر وتطوره فنميز كما هو منهج الباحثين في هذا المجال بين مرحلتين كبيرتين، بين مسمى الفكر الإسلامي القديم، ومسمى الفكر الإسلامي الحديث المعاصر، ولابد من التنبيه ههنا إلى أن هذا التمييز إنما هو من جهة طبيعة القضايا ومناهج تناولها في كل منهما، لا في المبادئ والأسس والمرجعية فإنها واحدة بلا شك.

الفكر الإسلامي القديم: النشأة والتطور

سلف البيان بأن نشأة الفكر الإسلامي تفتقت نواتها مع بزوغ فجر هذه الرسالة، ليبدأ العقل المسلم في تشكيل مبادئه وأسسه ومقومات نظرته للخالق والكون والذات والآخر... كل ذلك بتوجيه الوحي الذي أعاد تشكيل مبادئ هذا العقل ونقَض كثيرا من مسلماته التي كانت جزءا لا يتجزأ من شخصية وحياة إنسان ما قبل نزول الرسالة، لينطلق العقل المسلم بعد هذه الولادة الجديدة بفضل الوحي، ويؤسس له منهجا في التعامل مع القضايا الكبرى عقدية كانت أم فقهية أم سياسية أم حضارية، وبمختلف ما تتعلق به الحاجة الإنسانية عموما.

ويمكن أن نقف أكثر على جوانب النشأة في الفكر الإسلامي ومعالم التطور في منهجه من خلال مجالات كبرى غطت ساحة هذا الفكر عبر تاريخه، وذلك من خلال مجالات ثلاثة:

الأول: نتاج الفكر الإسلامي في مجالي العقيدة والفلسفة.

والثاني: نتاج الفكر الإسلامي في مجال الفقه الإسلامي وأصوله.

والثالث: نتاج الفكر الإسلامي في مجال التصوف.

1-الفكر الإسلامي وقضايا العقيدة والفلسفة، المنهج والأسس.

لا يخالف أحد أن المبادئ العقدية التي جاء بها الوحي خاطبت في الإنسان حاجته العقدية، وسدت ثلمة الفراغ والانحراف في هذا المجال، فكانت مبادئ سهلة الاستيعاب، وهذا شأن الخطاب الشرعي الذي وقع به التكليف، فتلقت العقول تلك المبادئ في صفائها ويسرها وانطلقت تمشي بها

في مناكب الأرض عملا بمدلولاتها في العبادة والكسب والتخلق وفي كل حركات الإنسان وسكناته، فصارت العقيدة بهذا المعنى هي المهيمنة على التصرف الإنساني الموجهة له، وأثمرت في الأمة عملا وانقيادا واستجابة لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فأحياها الله تعالى بعد موات، وجمع شملها بعد فرقة وشتات.

ولما أخذ الصحابة العقيدة الإسلامية بمنهج العمل لم يؤثر عنهم تعمق أو كثرة سؤال وبحث في جزئياتها وتفاصيلها، وإنما قصدوا إلى ثمرتها العملية في حياتهم، وهو المنهج الذي بثه رسول الله الله صلى الله عليه وسلم فيهم في حياته، وساروا عليه بعد وفاته، وبقيت الأمة على هذا المنهج ردحا من الزمن حتى بدأت تدب إلى جسمها بعض وجوه الخلل في تصور مبادئ هذه العقيدة وفي العمل بها، وكانت وراء القول ببعضها مآرب سياسية، فعقيدة الجبر التي قال بها بعض الأمويين؛ إنما قالوا بها تبريرا لما كانوا يأخذونه من المظالم، فلجأوا إلى القول:" إنما تجري أفعالنا على قدر الله" وأن الإنسان مجبر غير مخير في أفعاله... ليولِّد هذا الانحراف في العقيدة تيارا آخر تَزعَّمه نُفاةُ القدر الذين بينوا حرية الإنسان في اختياره ومنهم معبد بن خالد الجهني، وغيلان الدمشقي...

كما كان لوفود بعض المعتقدات من الثقافات الدخيلة وخاصة اليونانية أثر كبير في نشأة بعض المذاهب المتأثرة بها، أو المناهضة لها من داخل الساحة العقدية الإسلامية، وقد زادت حدة هذا الأمر مع اختلاط المسلمين بغيرهم بعد الفتوحات الإسلامية، فوجد المسلمون أنفسهم في مواجهة عقائد تتهدد العقل المسلم في مسلماته العقدية والدينية، فوفدت فكرة التجسيم التي كانت عند اليونان ووجدت لها مناصرين من أمثال مقاتل بن سليمان وهشام بن الحكم وهما من فئة المشبّهة، لتظهر بعد ذلك نزعة على إثرها، وهي المعطلة أو نُفاة الصفات يتقدمهم في ذلك الجعد بن درهم والجهم بن صفوان وغيرهما ممن وقفوا بهذا المنهج في وجه العقائد اليونانية والفارسية القائمة على التجسيم، وبدأ النقاش والجدال في قضايا العقيدة وعلم الكلام يتسع أكثر وأكثر لينتقل إلى مسألة خلق القرآن، والقضاء والقدر...ليمهَّد الأمر بعد ذلك لظهور مدارس كبيرة في قضايا العقيدة، والتي وجدت نفسها أمام تحديات خطيرة تحيط بالأمة فانبرت من منطلق ما ارتأته من منهج للدفاع عنها في وجه العقائد الدخيلة[1]، كما هو الشأن بالنسبة لمدرسة المعتزلة، وإن لم تسلم من انحرافات منهجية أدت فيما بعد إلى صدامها مع كثير من أئمة الإسلام كما في قضية خلق القرآن مع الإمام أحمد وغيره، ثم ظهرت

1 ـ يقول د. علي سامي النشار:" ولكن دعاهم إلى هذا حاجات ملحة وأخطار كانت تهدد مجتمعهم، أهمها أن يردوا الهجوم الذي قام به على الإسلام آباء المسيحية إبان ذلك الوقت". " نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام":54/1.

بعد ذلك المدرسة الأشعرية بأعلامها لتعمل بما اختارته من ثوابت منهجها على تصحيح ما غالت فيه المعتزلة كما سعت في رد عقلها الجامح إلى رشده فيما يرتبط بتأويل الصفات وغيرها.

والخلاصة أن الفكر الإسلامي في باب العقائد قد شهد بعد الفتوحات الإسلامية خاصة، رجّات عقديةً ترجمتها القضايا الكبرى لعلم الكلام والتي حتمت على كثير من العلماء التصدي لها مما جعلهم يعيشون في الغالب على ردات الفعل وهو ما يجعل طبيعة هذا الفكر نتاجا طبيعيا لظروف تلك المرحلة، ولذلك ينبغي أن يكون تقويمه وقراءته باستحضار تلك الظروف، كما لا ينبغي أن يُنكَر دور بعض المذاهب في دحر العقائد الفاسدة والنِّحَل الباطلة، وإن كان أحد لا يجادل في أن السجال العقدي قد أثر على تصور الأمة للعقيدة منهج تلقيهم لها في هذه المراحل وما بعدها.

ومن النتائج الكبرى كذلك لاختلاط المسلمين بغيرهم من طريق الفتوحات، وما صاحبها من حركة الترجمة خاصة مع الدولة العباسية، أن وفدت الفلسفة وخاصة منها اليونانية، لكن دخولها إلى الثقافة الإسلامية لم يكن دخول إفادة، بل سعى القائمون عليها إلى أن تتغلغل مبادئها في روح العقيدة الإسلامية تشكيكا في مقتضياتها، مع ما وافق ذلك من شدة انبهار بعض المسلمين بها اعتقادا منهم بصحة مبادئها، وسعيهم منهم لتكييف مبادئ الإسلام معها، وخاصة مع الفلسفة الإلهية المنسوبة لأفلاطون وأرسطو فقد " لجأوا إلى التأويل كي تكون النصوص الإسلامية موافقة ومطابقة معها، وكان عليهم أن يُوقِفوا منهجم على رجليه، فيبدأوا من أصول العقائد الإسلامية بنصوصها الكثيرة القاطعة، ليواجهوا ما وصل إليهم من تراث اليونان"[1]، وقد ألحق هذا النمط من الفلسفة بحقائق الدين ضررا كبيرا لولا أن انبرى له المتكلمون من مختلف المدارس الكلامية وغيرها، الذين أعادوا لتلك الحقائق بهاءها، وللفلسفة الإسلامية صفاءها، من خلال إبطالهم لكثير من المقدمات التي استندت إليها تلك الفلسفة ومن هؤلاء الغزالي وابن تيمية وغيرهما.

2- الفكر الإسلامي والقضايا الأصولية والفقهية الاجتهادية.

لعل السمة البارزة في مسار الفقه الإسلامي من عصر الرسالة إلى يوم الناس هذا، هو ثبات منهجه على وجه الإجمال، إذ لم يحتدم فيه الصراع كما احتدم في باب العقائد وعلم الكلام، وإن امتزجت كثير من القضايا الكلامية مع أصول الفقه ومع الفقه نفسه في بعض الأحيان[2]، نعم لا يُنكر

1 ـ تجديد الفكر الإسلامي، د. محسن عبد الحميد:64.

2 ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام":55/1.

ما شهدته بعض مراحل الفقه الإسلامي من مناظرات وجدل وتعصب، لكنه لم يُخرج الفقه عن رسالته في الأمة إلا لِماما، وبقي الفقه محافظا على نسقه المنهجي وأثره في الأمة، وكانت الأمة وما تزال أشد ارتباطا بما أنتجه العلماء في أبواب الفقه سواء في باب العبادات أو المعاملات.

وقد كان للمنهج الذي لقن به رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقه للصحابة الأثر الكبير في قدرة الأمة على السير بثبات في مختلف ما عرض لها من القضايا والمشكلات؛ ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بذر بذرة الاجتهاد في نفوس الصحابة بدعوته الصريحة لبعضهم أحيانا إلى ذلك، أو بإقرار ما كان من اجتهاداتهم في غيبته، مما ضمن لهذا المنهج سلامة الاستمرار مع ما سيّجه به الوحي من توجيهات في هذا الباب، من ذلك التنصيص على ثبوت أجر الاجتهاد في حال الصواب أو الخطأ. ولم يُقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وقد تمكن الصحابة من منهج الاجتهاد فانطلقوا به بعد وفاته عليه الصلاة والسلام يجيبون به على كل ما عرض لهم، حتى مع توسع البلاد الإسلامية، وكثرة قضاياها ونوازلها، فقد صاحب ذلك كله تطور في مناهج التشريع وطرق الاستنباط ووضعت الأصول الضابطة للفقه الإسلامي، وبدأت معالم المذاهب الفقهية تتشكل شيئا حتى غدت لها مناهج مضبوطة في طرق الاستنباط والاجتهاد، ووازى ذلك بزوغ أئمة الفقه عبر العصور ممن وكلت إليهم وظيفة تجديد قضاياه ومناهجه سواء في إطار الاجتهاد المطلق كما هو شأن الأئمة الأربعة، أو في إطار المذهب الواحد بعد إرساء أصوله وقواعده.

ولم تتأثر الأمة باختلاف مذاهبها الفقهية تأثرها باختلاف المذاهب العقدية، بل كان ذلك من أسباب السعة التي استوعبت قضايا الأمة وهمومها، ليشهد الفقه بدوره بعد هذه المراحل المتوهجة بالعطاء مراحل يُصطلح عليها بمراحل التقليد المحض بدأت من سقوط بغداد، ليدخل الفقه الإسلامي مرحلة اكتفى فيها بما أنتجه الأولون، وإن لم يمنع ذلك من قيام بعض المحاولات التي تركت أثرها في طريق السعي لتجديده.

ويبقى العقل مندهشا أما حجم الثروة الفقهية التي راكمتها الأمة عبر العصور في طريق فهم علمائها لهذا الوحي، لما يحمله هذا الفقه من عوامل التجدد التي تشرف بها الشريعة على الإنسان في كل جيل.

3- الفكر الإسلامي وقضايا الفكر الصوفي.

حرص الإسلام في هديه على رعاية الإنسان في جوانبه المختلفة روحا وجسدا، فكان أن شرع له ما به تزكو نفسه، وتسمو روحه، ويتغذى قلبه، في نطاق من التربية والتزكية التي تُعِدّ الإنسان إعدادا متكاملا، لكن على أساس من التوسط والقصد في هذا الأمر، لأنه لا رهبانية في الإسلام. وبهذا المنهج أخرج الإسلام جيلا من الصحب الكرام كانوا رهبانا بالليل فرسانا بالنهار، وسارت الأمة على هذا المنهج السليم في التربية والتزكية، حتى القرن الثاني الهجري، ليظهر اصطلاح حادث – كما يذكر ابن خلدون - عُرِف بالتصوف، واشتهر أصحابه بالمتصوفة، وقد جاءت حركتهم نتيجة عكسية لما طرأ على الأمة من إقبال شديد على الدنيا، يقول ابن خلدون:" علم التصوف: هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة و كبارها من الصحابة و التابعين و من بعدهم طريقة الحق والهداية و أصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها، و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة و السلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربة ولا قياس" [1].

لتبدأ بعدها معالم الفكر الصوفي في التشكل شيئا فشيئا من خلال ما اعتمدته هذه المدرسة من منهج النظر في حقائق الدين، وما صارت تصوغه في نطاق فكرها من تصورات عَبَّر أربابُها من خلالها عن رؤيتهم لكثير من تلك الحقائق، وبقي هذا الفكر محافظا على صفائه مع أشهر رواده كمعروف الكرخي، وبشر الحافي، والحارث المحاسبي والجنيد السالك البغدادي، وهم من علماء القرن الثالث الهجري، قبل أن يشهد هذا الفكر منعطفا في مساره ومنهجه، خرج به عن صفائه وأدخل فيه عقائد ومذاهب في غاية الانحراف، تتعارض بالجملة والتفصيل مع أصول الإسلام وثوابته عقيدة وعبادة وسلوكا، فدخلت في هذا الفكر عقيدة الحلول التي قال بها غلاة المتصوفة كالحلاج، والفلسفة الإشراقية[2] مع السهروردي[3]، وعقيدة وحدة الوجود مع ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض ومن نحا نحوهم ممن أخرجوا الفكر الصوفي عن وسطيته واعتداله وأدخلوه في

1 - المقدمة:2/149-150.

2 - تتأسس الفلسفة الإشراقية على طول التأمل في الأشياء بما يفضي إلى المكاشفة ومشاهدة الأنوار بعيدا عن المدركات الحسية، او القواعد المنطقية التي تقررها العقول وتسلم بها، فمبناها على ذوق مفض إلى مشاهدة الأنوار بالمكاشفة، فتفسر الحقائق على ضوئها.

3 - ينظر مناهج البحث عند مفكري الإسلام، د. علي سامي النشار: 303 ومابعدها.

شراك من النظر الوجداني الذي تتحد فيه ذوات المخلوقات مع الخالق إلى غيرها من مظاهر الانحراف والشطط الواقع في هذا النوع من الفكر. وهو ما حث كثيرا من الرواد المنصفين المعتدلين في هذا الفكر[1] على العمل على رده إلى صفائه ونقائه، وذلك في مختلف العصور التالية لهؤلاء، قبل أن يصير هذا الفكر في العصور المتأخرة إلى منهج طُرقي مُحِيت معه جلّ معالم التصوف الرسالي.

وبالجملة فالفكر الصوفي في تاريخ الإسلام شهد تحولات كبيرة أخرجته في أحيان كثيرة عن معاني التزكية والتربية التي قصدها الوحي ودأب عليها المتقدمون من سلف هذه الأمة، وهو ما تجلى أكثر مع غلاة الصوفية الذين شطوا في نزعاتهم العقدية والسلوكية الشاذة عن منهج الإسلام وعقيدته وهديه.

1 ـ نذكر منهم أبا القاسم القشيري، وعبد القادر الجيلاني وابن عطاء الله السكندري وغيرهم كثير.

الفكر الإسلامي: النشأة والتطور (2)

الفكر الإسلامي الحديث.

تمهيد.

من السُّنن الجارية في هذه الأمة أن فكرها مرآةُ حضارتها، فمتى كان هذا الفكر معافىً كانت الأمة تبعا له، والعكس صحيح، كما أن من السنن الجارية أن علاقة هذه الأمة بدينها وتمسكها بمبادئه عقيدة وشريعة وسلوكا ومنهج حياة؛ كل أولئك محدد أساس لرقيها أو انحطاطها. وإذا كانت الأمة باتباعها لمبادئ هذا الوحي قد خطّت عبر قرون متوالية صفحات مشرقة، برهنت من خلالها على قدرة هذا الدين على صناعة الإنسان القائد للحضارة الإنسانية بمبادئ تنصف العدو قبل الصديق... فإنه قد أتى على الأمة حين من الدهر أخلدت فيه إلى الأرض فارتكست في سلم الحضارات، فضعفت شوكتها، ونُخِرت قوتُها، فهانت على أعدائها؛ لكن لا تصل إلى هذه المرحلة حتى تتهيأ فيها القابلية[1] لذلك عقيدة وفكرا وسلوكا، فحين تضعف هذه الحصون ، أو تتهاوى بعض مقوماتها، يسهل على أعدائها أن يخترقوا جسمها، وينهبوا خيراتها، ويبددوا طاقاتها، بل ويسعون في محو هويتها، ومسخ فكر أجيالها.

وبين رُكام هذا الانحطاط يسجل التاريخ الإسلامي، محاولات العلماء وجهود المخلصين من أبناء هذه الأمة، لإعادة ربطها بدينها عقيدة وشريعة وسلوكا، ومعها إعادة استنهاض همتها، وشحذ عزيمتها، أملا في أن تنفض عنها غبار التخلف وتستأنف رسالتها الحضارية التي قدمت منها استقالتها كما يقول مالك بن نبي رحمه الله.

لقد كانت الدعوات الإصلاحية التجديدية التي حمل لواءها ثلة من العلماء والمصلحين والمفكرين في التاريخ الحديث للأمة بارقة أمل كانت تلوح في أفق سماء هذه الأمة، تخليصا لها من

1 - يتحدث المفكر الإسلامي مالك بن نبي رحمه الله عما يُسمّيه **القابلية للاستعمار**؛ ففي كتابه الصراع الفكري يقول: «إن الاستعمار قد جاء إلى العالم الإسلامي نتيجة مرض أساس عندنا، هو القابلية للاستعمار.. وهو نتيجة الصراع الفكري الذي خطط له الاستعمار وأحسن إحكام الخطة.. لقد سلط الاستعمار الأضواء على المشكلات الهامشية، بينما ترك في الظلام كل رؤية منهجية سليمة.. تفتح الطريق أمام حركة التاريخ». الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة.

كثير من مظاهر الركود في الفكر والسلوك، أو تقليلا من حجم الأخطار المحدقة بها من كل جانب، قبل أن تتطور هذه المحاولات إلى حركات لبث الوعي في شكل تيارات ومدارس تشتغل وفق رؤية منهجية محددة، صاغت فيها حاجات الأمة الملحةَ من منطلق فقه الأولويات الشرعية والاجتماعية والحضارية، خاصة في تلك المراحل من تاريخ الأمة الحديث التي احتدم فيها الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وبشكل أخص بعد غزو البلاد الإسلامية واحتلالها، الذي انتهى بإسقاط الخلافة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين، ومعها سقط لحمة معنوية كانت تستند إليها البلاد الإسلامية، كما أنها كانت تشكل على الدوام عقدة لأعدائها، لتبدأ بعد سقوطها نكبات أخرى، لا تقل خطرا عنها، ويأتي في مقدمتها نكبة فلسطين التي هي نكبة الأمة كلها على اعتبار رمزية القدس ومكانتها عند المسلين، وتوطين اليهود فيها، في إطار مشروع صهيوني غربي... وغيرها من النكبات.

وبإزاء هذا الوضع القاتم بقيت الأمة تبحث عن ذاتها خاصة بعد أن أحكم العدو قبضته عليها من مختلف الجوانب الفكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وبقي العقل المسلم يعيش على وقع الصدمة الحضارية التي بقي فيها حائرا، وهو يشاهد غيره يرتقي في مدارج التقدم المادي...فبدأ سؤال الوعي والنهضة يطرح نفسه بإلحاح، وصار يكسر جدار الصمت الذي شلّ حركة فكر الأمة وعطائها فبدأت تُطرح أسئلة ترجع في معناها إلى السؤال العميق الذي طرحه الأديب شكيب أرسلان لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون، فانبرى علماء الأمة ومصلحوها لإعادة هذا الوعي بالذات ابتداء، الذي يؤهلها إلى الوعي بالآخر في نطاق التدافع الحضاري، غير أن الأمة في جوابها عن سؤال النهضة لم تكن على قلب رجل واحد، ولم تلهج بلسان واحد، فانقلب عندها الصراع مع الآخر إلى صراعين؛ صراع مع فكر الغرب وحضارته، وآخر مع الذين يحملون مشروعه من بني جلدة المسلمين، الذين ينوبون عنه في إعادة تشكيل هذه النهضة على مقاساته ومبادئه، لتبدأ بعدها أسئلة أخرى في التنازع في العصر الحديث وخاصة بعد استقلال البلاد الإسلامية، وخروج المحتل في إطار صراع النخب، وسباقها لتشكيل الوعي في البلاد الإسلامية، فصارت أسئلة الحداثة وما بعد الحداثة، تَطرح نفسها في ظل تعدد المرجعيات والخلفيات والمقاصد، ليكون لذلك كله أثر كبير على تعدد نتاج هذا الفكر منطلقا ووسيلة وغاية.

أولا- تجديد الفكر الإسلامي الحديث.

شهد مسار الفكر الإسلامي منعطفات تاريخية بسبب ما خيم على واقع الأمة من الركود والانحطاط في مختلف مجالات الحياة في المجتمعات المسلمة، فمن ضعف الإنتاج العلمي وركود حركة الفكر من خلال الجمود على ما أنتجه الأولون، إلى شيوع الاستبداد السياسي بسبب تدهور الخلافة العثمانية... كل أولئك مهد لبزوغ حركة فكرية قادها رواد الفكر الإسلامي الحديث، وذلك ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر الهجري الذي يوافق النصف الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي؛ في إطار حركات إصلاحية تجديدية عملت على بث الوعي بما يُحدِق بالأمة من الأخطار ومن هذه الحركات ما أثمر فكرا ثوريا لمقاومة المحتل الغربي، ومنها ما عكف في مرحلة من مراحل اشتغاله على إعداد الأمة إعدادا فكريا متينا ... ومن هذه الحركات والجهود.

1- حركة الشيخ محمد بن الوهاب (1115-1206 هـ) (1703-1792م) في الحجاز:

هذه الحركة كانت حركة عقدية ثم تطورت إلى حركة سياسية؛ فقد حملت لواء التصحيح للعقيدة على منهج السلف، وخاصة على منهج ابن تيمية رحمه الله وتلميذه ابن القيم الجوزية، وقد أعلنت هذه الحركة عن نفسها في مواجهة ما استشرى من مظاهر الشرك التي بُعثت فيها الجاهلية من جديد في الجزيرة بعبادة الأشجار والحجارة والقبور، فضلا عن انتشار كثير من البدع والانحرافات والخرافات بما أخرج العباد عن العقيدة الصافية في أحكامها ومقاصدها[1]... واستطاعت حركة الشيخ أن توجد لها أتباعا وأنصارا، بل تمكنت من العبور إلى خارج حدود الجزيرة العربية إلى بلاد الهند وأفغانستان...؛ حيث استطاع بعض رموز الإصلاح هناك تبني هذه الدعوة والسير بمنهجها في إصلاح مجتمعاتهم.[2]

وبرأي كثير من الباحثين فإن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعد أول حركة في هذه الحقبة لبث الوعي واليقظة في العقل العربي المسلم، يقول العقاد رحمه الله:" كان أول هذه الدعوات في تاريخ ظهورها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي ولد في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة ببلدة العيينة من نجد في جزيرة العرب، وسَبْقُ هذه الدعوة في تاريخها يرجع إلى بساطة المجتمع الذي ظهرت فيه، وإلى ابتعاده في داخل شبه الجزيرة عن عوائق الحياة العصرية بين الأمم

1 - ينظر " الإسلام في القرن العشرين لعباس محمود العقاد": 72-77.
2 - العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، انور الجندي:256.

الإسلامية الأخرى التي تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع"[1]. فيكون إذا "أول من حاول طرح مشروع إسلامي جديد في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وقد استطاع مع محمد بن سعود وخلفاؤهما قيادة حركة ناجحة استولت من خلال الدعوة والقوة على السلطة في شبه الجزيرة العربية وطبقت أفكارها على أرض الواقع من 1153هـ إلى 1233هـ ولم تخمد إلا من خلال قوات محمد علي الذي تحرك من مصر لسحقها بمباركة السلطان العثماني"[2]، ولم تكن حركته حركة دينية فحسب بل كان لها مشروع سياسي قض مضجع الدول الاستعمارية، وكان يهدد في الوقت نفسه الدولة العثمانية؛ لذلك تصالحت القوى المتعادية على محاربتها والقضاء عليها، إلا أن فكرها لم يتوقف، فكثير من الحركات التي أتت فيما بعد تأثرت بهذه الدعوة وبهذا المشروع، ومنها مشروع جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده في مصر، وجمال الدين القاسمي في العراق وغيرهما من مشاريع الإصلاح[3].

2- الحركة السنوسية:

تأسست على يد محمد بن علي السنوسي[4] وهي من أولى الحركات في الغرب الإسلامي وقد كانت ببلاد ليبيا (واحة جغبوب) التي تأثرت بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وإن خالفه في كثير من الأمور كالإنكار على الأئمة[5]... وقد كانت السنوسية حركة ودعوة وطريقة أسست منهجها على مفهوم متكامل للإسلام يجمع بين التصوف الفاعل والفقه والعقيدة، والمنهج التربوي المُعِد لأجيال تحمل لواء الجهاد وتنشد وحدة المسلمين في إطار مفهوم الأمة في مقاومة المحتل الأجنبي الصليبي خاصة بعد سقوط الجزائر عام 1830 في يد الاستعمار الفرنسي، وقد ارتكز فكره على خمسة أصول كبرى:

- العودة بالإسلام إلى منابعه الأولى.

---

1 - " الإسلام في القرن العشرين لعباس محمود العقاد": 72.

2 - العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، انور الجندي:256.

3 - العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، أنور الجندي:258-259.

4 - ولد الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر 1787م، قبل أن يستقر بواحة (جغبوب) بليبيا ويؤسس هناك مدرسته ومنهجه. وقد كان عالما مجتهدا مالكيَّ المذهب، وتؤثر عنه اجتهادات وتأصيلات لفقه المذهب، حتى إنه ينسب إليه زيادات في اصول المذهب المالكي كما ذكر ذلك الشيخ محمد عبده في كتابه: عن الإسلام والنصرانية" وقد تتلمذ الشيخ السنوسي على طائفة من علماء المغرب بمراكش، وآخرين بالمشرق، كما أفاد منهجه السلوكي من بعض الطرق بالمغرب.

5 - " الإسلام في القرن العشرين لعباس محمود العقاد": 78.

-توحيد المذاهب[1].

-فتح باب الاجتهاد.

-نشر تعاليم الإسلام.

-مقاومة النفوذ الأجنبي. [2]

وقد انطلقت في أعمالها بشكل فعلي ما بين 1842و 1856م، استطاعت من خلالها تكوين أجيال بمنهج تربوي قاوموا الاحتلال الإيطالي فيما بعد، ومن هذه المدرسة تخرج المجاهد عمر المختار، وأحمد شريف السنوسي وغيرهما، كما نشرت مذهبها في كثير من الدول الأخرى كالسودان وغيرها.[3] وبهذا تكون هذه الحركة قد سعت في نهضة المسلمين، وبث الوعي فيهم كما تاقت إلى توحيد الأمة على منهج جامع، وإن لم يكن لها مشروع سياسي. لكنها حاولت تجديد كثير من مظاهر الفكر السائد آنذاك.

3- مدرسة جمال الدين الأفغاني السلفية وكبار روادها.

بعد توقف حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بقليل بدأ الاحتلال الصليبي يسيطر على البلاد الإسلامية تباعا، وهو ما أيقظ همة المصلحين والمجددين من أجل إيقاظ المسلمين من سباتهم العميق، فبعد سقوط مصر في يد الاحتلال البريطاني، نشأت مدارس لمقاومة هذا الغزو فكرا وسلوكا، فظهر رواد التجديد من أمثال جمال الدين الأفغاني[4]، الذين تأثروا بكثير من مبادئ الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وطفق يسعى بما أضافه لها من مبادئ في الاشتغال يُحيي في الأمة الوعي بذاتها، وضرورة توحيد صفوفها في مواجهة عدوها، وقد كان لهذه المدرسة بصمة بينة واضحة من حيث دعوتها إلى تجديد كثير من مظاهر الفكر الإسلامي حتى تتناسب مع حاجة عصر الأمة، فارتكزت هذه المدرسة على الدعوة إلى:

-نبذ الجمود والتقليد والتعصب، وضرورة تفعيل الاجتهاد الشرعي الذي يستجيب لحاجات العصر الملحة، وكل ذلك ينبغي أن يكون في نطاق فهم مقاصد الشريعة.

1 - التحقيق أن الشيخ محمد بن علي السنوسي كان فقيها مالكيا مجتهدا، حافظ على مالكيته في الفقه.

2 - العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، أنور الجندي:262.

3 - العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، أنور الجندي:258-259.

4 - المعروف أن جمال الدين الأفغاني، كما هو اسمه أفغاني الأصل، لكنه تردد على كثير من البلاد الإسلامية وغيرها، وهو ما جعله يختار مصر على اعتبار مركزها من العالم الإسلامي، لبث دعوته، ولذلك كان أغلب من تأثر به من المصريين.

-ضرورة تجديد مناهج تفسير القرآن الكريم بما يستجيب لحاجات العصر، وتجاوز ما علق بالتفاسير من كل ما يحجب الأمة عن تلقي معاني القرآن صافية بسيطة.

-رفض الاستبداد السياسي في الحكم، واعتباره أحد العوامل الكبرى المسؤولة عن تخلف المسلمين آنذاك.

-ترسيخ العقيدة الصحيحة والدعوة إلى إعادة ربط الناس بمبادئ الدين القويم وتحبيب قيمه إلى نفوسهم.

-التصدي للحملات الفكرية الغربية التي تسعى إلى تشويه الدين في نفوس المسلمين.

-السعي إلى لتوحيد جهود الأمة في مكافحة عدوها، فكان ينتقد وضع المسلمين حين يراهم "متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد مطاوعين للمستعمرين والمستغلين جادين في خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين"، كما ينقل عنه المؤرخون.

-الدعوة إلى الانفتاح على مواطن القوة في الحضارة الحديثة، والاستفادة من التجارب الإنسانية الحضارية، سعيا إلى وضع الأمة على سكة الرقي الحضاري[1].

وقد أخرجت هذه المدرسة جيلا تبنى هذه الأفكار نذكر منهم ، الشيخ محمد عبده، الذي سار على منهجه إلى حدود عام 1885 قبل أن يركز فيما بعد على العلم والتربية كأسلوب من أساليب مواجهة الاستعمار والنفوذ الأجنبي[2] والشيخ محمد رشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، ليتوسع نطاق هذه الأفكار في سائر أنحاء العالم الإسلامي شرقا وغربا بما كان له من رحلات وجولات في بعض البلدان. وقد كانت توصف دعوة الشيخ الأفغاني "بالجامعة الإسلامية"[3]، فكان من الطبيعي أن تترك الأثر الكبير في الأجيال التي عاصرتها أو أتت بعدها. يقول الدكتور محسن عبد الحميد:" ولقد كان تأثير الأفغاني عظيما في كل مكان حل فيه، لا سيما في أسلوبه الجديد وأسلوب تناوله لقضايا الحياة المتنوعة، ولهذا كوّن مدرسة فكرية ضخمة تخرج منها المفكرون والعلماء والسياسيون، وأخذ كل منهم بحظه في الاغتراف من فيض فكره وحركته"[4].

1 - يُنظر "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، أنور الجندي:258-259، وتجديد الفكر الإسلامي لمحسن عبد الحميد: 102 وما بعدها. و" الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، لمنير شفيق:28-29.

2 - ينظر "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، أنور الجندي:274.

3 - الإسلام في القرن العشرين:86.

4 - تجديد الفكر الإسلامي:105

هذا وقد ظهر منهج المدرسة جليا فيما كتبه روادها، أو المتأثرون بمبادئها من مؤلفات في مختلف العلوم والمجالات، فكان هذا المنهج منهجا تجديديا في طبيعة الفكر الإسلامي في تلك المرحلة أو ما بعدها، اصطبغ به –على درجات متفاوتة- فكر كثير من العلماء والمفكرين فيما بعد كسيد قطب والطاهر بن عاشور وأبي الأعلى المودودي والشيخ شلتوت، والشيخ بن العربي العلوي وعلال الفاسي، وغيرهم كثير.

وقد تبلورت أفكار المدرسة أكثر مع مفكرين ومصلحين ممن حملوا مشاريع إصلاحية ويأتي في مقدمتهم الإمام حسن البنا رحمه الله، الذي استثمر كثيرا من مبادئ تلامذة مدرسة الأفغاني ليؤسس لرؤية شمولية، بمبادئ متكاملة قصد منها أصحابها أن تكون دعوة سلفية يُرجع من خلالها إلى الكتاب والسنة، وطريقة سنية في العقائد والعبادات والمعاملات...وحقيقة صوفية؛ تزكية للنفوس وتربية لها، وهيئة سياسية تتغيى إصلاح نظام الحكم، وتدبير شؤون الأمة في علاقتها بغيرها من الأمم، وتربية الأمة على العزة والكرامة والمحافظة على قوميتها، وهي كذلك رابطة علمية ثقافية لأن الأمة لا تنهض إلا بالعلم، وهي كذلك شركة اقتصادية، وفكرة اجتماعية... وهذه المدرسة بدورها خرجت أفواجا من العلماء من جيل الصحوة نشروا هذا الفكر كلية، أو تأثرت كتاباتهم بجل مبادئه؛ سواء قُبيل أو بعد استقلال الدول الإسلامية وجلاء الاستعمار عنها، ومن هؤلاء العلماء: سيد قطب، والشيخ محمد الغزالي، وعبد القادر عودة، والشيخ يوسف القرضاوي، والبهي الخولي وغيرهم كثير ممن تولى نقض أفكار الغرب ومواجهتها بالفكرة الإسلامية، وفي مرحلة أخرى مواجهة التيارات الفكرية التي تنهل من فكر الغرب المستنبتة في بلاد المسلمين.

4- الحركة السلفية الوطنية بالمغرب.

امتد تأثير أفكار مدرسة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إلى المغرب، حيث حمل لواء هذه المدرسة بشكل أو بآخر ثلة من العلماء والمفكرين، الذين وجدوا في هذه المبادئ مندوحة لجمع الناس حولهم ونقد كثير من جوانب الخلل التي كانت سائدة في البلاد، لكن ما ميز الحركة السلفية في المغرب أنها كانت تحت لواء الحركة الوطنية فاستُثمِرت الجهودُ للوقوف في وجه المحتل الفرنسي والإسباني، ومن الرواد الذين حملوا فكر هذه المدرسة، نجد محمد بن عبد الكريم الخطابي والشيخ محمد بن العربي العلوي الذي أسهم بدوره في إعداد جيل يحمل هذا الفكر وفي مقدمتهم المرحوم علال الفاسي، وعبد الله كنون وغيرهما.

وجدير بالذكر أن المدارس الفكرية التي أخذت على عاتقها تجديد الفكر الإسلامي بما يتناسب مع تلك المرحلة مدارس كثيرة، إن في المشرق أو في المغرب أو في بعض البلاد الإسلامية كالهند وغيرها وفي بلدان إفريقيا كذلك...، لكنا اقتصرنا على ذكر أهممها.

ثانيا- مرتكزات تجديد الفكر الإسلامي الحديث عند رواد المدارس الإصلاحية المعاصرة.

يمكن إجمال أهم المرتكزات التي استندت إليها مدارس الإصلاح في تجديديها للفكر الإسلامي الحديث في نقاط أهمها:

-دعوتها إلى تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجمود والجبرية، والتنصيص على أن باب الاجتهاد مفتوح لم يغلق.

-إزالة ما تجمع خلال فترة الضعف مما نسب إلى الإسلام أو وُصِل به وهو ليس منه؛ وفي مقدمتها الوثنيات وطوابع الفلسفات المادية القديمة والحديثة.

-التوفيق بين الإسلام وقضايا العصر والحضارة على النحو الذي يحقق قيام المجتمع الإسلامي على روح الإسلام وقيمه، مع الانفتاح على الحضارة وعرض الإسلام باعتباره فكرا ومنهجا صالحا لنظام المجتمع، والكشف على أنه دين ومدنية معا.

-مقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي، مع ضرورة التفرقة بين الاستعمار والحضارة من ناحية، والثقافة والحضارة من ناحية أخرى[1].

-الانكباب على البحث عن جوانب الخلل والقصور في جسم الأمة والاجتهاد في وضع الحلول لنهضة المسلمين من تخلفهم.

-السعي في إطار الإجابة عن أسئلة النهضة وشروطها إلى مواجهة الأفكار المتغربة التي ترى النهضة للمسلمين في ضرورة اقتفائهم المنهج الغربي حذو القذة للقذة، فقد سعى رواد الفكر الإسلامي في هذه الفترة بالذات إلى إعادة ربط الناس بقيم دينهم الأصيلة.

ثالثا- المراحل الكبرى لتاريخ الفكر الإسلامي الحديث.

-قسم بعض الباحثين المراحل التي مر منها الفكر الإسلامي المعاصر إلى خمس مراحل:

--**المرحلة الأولى:** مرحلة وجود الدولة العثمانية وسريان الضعف فيها، وهي المرحلة التي مثلها فكر جمال الدين الأفغاني، وتتسم هذه المرحلة بمحاولة إصلاح الدولة العثمانية من داخلها،

1 - يُنظر "العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي، أنور الجندي:308.

دون إنكار المحاولات الإصلاحية التي كانت من خارجها كحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والحركة السنوسية.

- **المرحلة الثانية:** وتبدأ بتثبيت الاستعمار أقدامه بمصر في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وتنتهي مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد مثلها فكر الإمام محمد عبده، ورشيد رضا والكواكبي... وقد أثرت هذه المرحلة فيما بعدها من المراحل.

- **المرحلة الثالثة:** مرحلة سقوط الخلافة العثمانية، والاستعمار المباشر للدول الإسلامية على نطاق واسع، وفي هذه لمرحلة ظهر فكر رواد الإصلاح من مثل الإمام حسن البنا ردا على انهيار الخلافة الإسلامية.

-**المرحلة الرابعة:** مرحلة ما بعد استقلال الدول الإسلامية، أواخر خمسينيات، وبداية ستينيات القرن الماضي، وقد استمر فيها تأثير مدرسة حسن البنا، وتخرجت أفواج من المفكرين والعلماء الذين حملوا لواء الدفاع عن الفكرة الإسلامية في إطار ما عرف ببداية جيل الصحوة، ومجابهة الأفكار والإديولوجيات الدخيلة اليسارية منها والعلمانية والليبرالية... وهذه المرحلة تمتد إلى ثمانينيات القرن الماضي.

- **المرحلة الخامسة:** وهي مرحلة بدأ يتسم فيها العمل الإسلامي بالتنظيم في إطار أحزاب وهيئات سياسية تُبلور رؤاها في إطار مشروعات لتنظيمات بهياكلها الحزبية والسياسية، مع ظهور قضايا في مختلف الجوانب شغلت المفكرين في ظل وجود إديولوجيات مختلفة لتفسيرها. [1]

1 - الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات، 29-37 بتصرف.

مصادر الفكر الإسلامي (1-2)

تمهيد.

يرتبط الفكر الإسلامي كما سبق في تعريفه من حيث مصادره بالوحي المعصوم ارتباطا وثيقا، فرؤية العقل المسلم إنما تشكلت ابتداء منه بالضرورة، ولذلك فإن مصدرية الوحي بالنسبة لهذا الفكر جوهرية لا يتصور بأية حال من الأحوال الاستغناء عنها، وتصور ذلك أو السعي لمحاولة تنفيذه يعد بمثابة إطلاق العنان لهذا الفكر في أن يبني تصوراته للمعارف، ورؤيتَه للحقائق تحت قهر نوازع الهوى الإنساني الذي لا يستطيع التخلص منه عند التفكير، أو قد يكون عرضة لضيق أفق هذا التفكير في حد ذاته، أو قد يوقعه تحت وطأة الجمود على فكر الآباء، أو قد يؤول به إلى توهم امتلاك الحق المطلق في التصورات والتصرفات، بما يؤدي إلى انحراف وفساد في طبيعة الإدراك، ناهيك عما قد يعجز عنه هذا العقل - لا محالة – إذا وُكل إلى نفسه من إدراك لحقائق الغيب وأنى له ذلك إن هو أخطأه توجيه الوحي، لذلك تبقى حقيقة وجود الفكر الإسلامي رهينةً بمدى ارتباطه بهذا الوحي.

إن ارتباط هذا الفكر بهذا الوحي منذ نزوله يدحض شُبَهَ الغربيين والمستشرقين الذين يدعون بزعمهم أن الفكر الإسلامي إنما نشأ بتأثير الفلسفة اليونانية والثقافة الأجنبية، فزعموا تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني، يقول العلامة علال الفاسي في دفاعه عن الشريعة في كلمة جامعة:" ونحن إذا تأملنا الثروة الفقهية على الخصوص، نجدها خير ما يحفظ لأمتنا الفكر الإسلامي الصحيح، الذي لم تشُبْه أي شائبة من أي فكر أجنبي؛ فالفقه الإسلامي مستقل في وجوده، وفي مصادره، وفي أفكاره ورجاله، لا يمكن لأحد أن يدعي تأثره بمذهب من المذاهب الأجنبية، أو الأفكار غير الإسلامية"[1] ومن ذلك أيضا زعمهم هيمنة الفلسفة والثقافة اليونانية على كثير من جوانب الفكر الإسلامي[2]... والحق الذي لا مرية فيه " أن الفكر الإسلامي العربيَّ اللغة تكونت مقوماته وأسسه قبل أن يتصل بالفكر اليوناني، الذي نُقل إليه بالترجمة في عصر المأمون، وأن القيم الإسلامية الأساسية

1 - دفاع عن الشريعة، علال الفاسي:74.

2 - ينظر" نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام"، د. علي سامي النشار:46، و"تجديد الفكر الإسلامي"، د. محسن عبد الحميد:51.

قد استطاعت أن تسيطر على هذا التراث الضخم الذي تُرجم ونُقل من الثقافات الفارسية والهندية واليونانية، وأن تَستصفي منه ما يتفق مع مقومات هذه الأسس"[1].

وإذا كان هذا الفكر شديد الارتباط بالوحي المعصوم كتابا وسنة؛ فإن ذلك لا يعني أبدا عدم انفتاحه على مصادر أخرى يمكن أن تُغنيه بحقائقها ومحاصيل إنتاجها المعرفية، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، ونصوص الوحي نفسِه تدعو المؤمن إلى استثمار التجارب الإنسانية بُغية تدعيم الفكر وإسناده. ومن هنا: "فقد عاشت منابع الفكر الإسلامي حية نابضة متصلة بالحياة في العالم الإسلامي، تحمل عصارة الحكمة والرأي في كل ما يتصل بأمر الناس ومعاشهم"[2] لذلك يمكن أن نقف على مصدرين كبيريْن للفكر الإسلامي؛ الأول ذلك الذي ينهل فيه من معين الوحي الصافي، ويتفاعل مع قضاياه المختلفة فهما واستنباطا وتوظيفا، والثاني ذلك الذي ينفتح فيه على الموروث الإنساني والحضاري مفيدا منه ما يراه نافعا بَناءً.

1- الوحي الرباني المصدر الأساس للفكر الإسلامي.

يُعتبر الوحي المعصوم كتابا وسنة أهم مصدر بالنسبة للفكر الإسلامي، فضلا على أن مبادئ هذا الوحي حاكمة موجهة لطبيعة نتاج هذا الفكر، وقد حفُل القرآن الكريم كما السنة النبوية بالدعوة إلى استخدام هذا العقل تفكيرا وتدبرا واعتبارا بما يجري من السنن الكونية والتشريعية والاجتماعية...وقد أمد الوحي العقل البشري عامة والمسلم خاصة بحقائق متنوعة عن الخالق والكون والنفس والغيب والخلق... كما أمده بمقومات منهج الحياة السعيدة، وأمره في كلٍّ أن يتفاعل مع تلك الحقائق إيمانا وتصديقا أو استجابة وامتثالا، أو تفسيرا وبيانا، أو فهما واستنباطا... فوجد العقل في هذا الوحي أرضا خصبة لبناء مقوماته وأسسه، وأيضا للاشتغال بنصوصه بيانا وتفسيرا لِما لم تَحسم الشريعة بيانَه من النصوص الظنية التي تستوجب نظر العلماء واجتهادهم، أو إيجادا لأحكام قضايا لم يُنص على حكمها، فتنطلق إليها اجتهادات العلماء بروح هذا التشريع ومقاصده في الخلق مجيبة عنها رافعة لكل لَبس بشأنها.

1 - من منابع الفكر الإسلامي، أنور الجندي:03.
2 - من منابع الفكر الإسلامي، أنور الجندي:05..

والمتأمل في طبيعة هذا الوحي يجد فيه ثنائية المرجع لهذا الفكر الموجه له الحاكم عليه، كما يجد فيه عنصر المَعين الذي لا تنضب قضاياه ولا تنفد خزائنه، وهو ما يجعل هذا الفكر دائم الارتباط به على مر العصور، ودونك تعداد العلوم التي تفتقت نواتُها من مشكاة الوحي من تفسير وفقه وأصول وعقيدة وحديث... وما تشعب تحتها من الفروع والتقاسيم ...، وما استنبطه مفكرو الإسلام من الوحي من نظريات في التربية والاقتصاد والاجتماع والسياسة... والقصد أن من وجوه إعجاز هذا القرآن خاصة والوحي عامة؛ إلهامه المتجدد للفكر في كل عصر، بما يجعل النظر في هذا الكتاب متاحا لكل جيل بما امتلكوا من مفاتيح الفهم له، فالوحي إذا يفتح آفاق هذا الفكر إلى عوالم مختلفة تتعدد حقائقها بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وهو ما يجعل العقل المسلم - بما يكرع من الوحي ويغترف من بحر هديه – عقلا راشدا متبصرا، يقول سيد قطب رحمه الله:" فالعقل بمصاحبة هدي الله بصير، وبترك وحي الله وهداه أعمى(...) فالتفكر مطلوب والحظ عليه منهج قرآني، ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحي الذي يمضي معه مبصرا في النور، لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام أعمى بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير (...) والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في إطار ضيق، وإنما يتحرك في مجال واسع جدا"[1].

والخلاصة أن الوحي الرباني المعصوم كتابا وسنة هو أصل الأصول لهذا الفكر، ففي فلكه يسبح، ومن فيض حقائقه يمتح، ولذلك كان الأساس في نسبته إليه، كما أن رشاد منهجه لا يتصور خارج نطاق أحكامه ونصوصه وتوجيهاته، ومن نافلة القول: إن هذا المصدر لا يُدانيه مصدر أو يجاريه إن في طبيعة حقائقه المطلقة، أو في منهجه المعصوم من الخطأ ، أو في نوعية توجيهاته المستوعبة لقضايا الإنسان والزمان، لا لشيء إلا لأنه ﴿ لاَّ يَاتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.[2]

2- ثقافة الحضارات الإنسانية.

لم يكن الإسلام يوما، ومعه الفكر المنبثق منه مستنكفا عن الإفادة من العطاء الإنساني كيفما كانت جهته، فذلك من باب الحكمة التي تُطلب حيث وُجدت، وفي هذا السياق يأتي التوجيه النبوي حاسما لهذا الأمر إرشادا إليه وعملا به، فقد دعا النبي عليه الصلاة والسلام إلى تحري الحكمة والسعي في طلبها، بغض النظر عن جهة صدورها؛" الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو

1 - في ظلال القرآن:1099/2.
2 - فصلت:41.

أحق بها"[1]. وأما من حيث العملُ فقد جسد النبي هذا المبدأ في مواقف مصيرية حاسمة في مستقبل الأمة؛ من ذلك ما صح عنه في سيرته العملية من أخذه بمشورة سلمان الفارسي بحفر الخندق في غزوة الأحزاب، وهو أمر لم تعتده البيئة العربية عموما، فأخذ به عليه الصلاة والسلام، ولم يستنكف من قبوله من رجل غريب الموطن... فكان رأيه أحد أسباب النصر والنجاة.

ومن هنا فإن الفكر الإسلامي يبقى منفتحا على كل التجارب الإنسانية، مفيدا منها ومن عطائها العلمي والثقافي، لكن على أساس توافق ذلك كله مع مرجعيته المستندة إلى الوحي، وهو أمر نادى به كثير من رواد الفكر الإسلامي خاصة في العصر الحديث، على اعتبار ما راكمته الحضارة الغربية من تجارب متقدمة في عصر العلم في الميادين المختلفة؛ العلمية والتقنية والاقتصادية... "فالفكر الإسلامي(...) يرى في الحضارة قوة فعالة عالمية شارك في بنائها أول الشوط، فليس عليه من ضير أن يشيد جوانبها العلمية والصناعية، ويقيم جوانبها على أرضه بالحق ويسير في ركب الإنسانية منشئا من قيمه ومفاهيمه أساس بناء حياته وفكره".[2]

1- رواه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة، برقم:2687. قال أبو عيسى الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وضعفه الشيخ الألباني في "ضعيف الترمذي". برقم: 506.

2 - من منابع الفكر الإسلامي، أنور الجندي:04.

خصائص الفكر الإسلامي (1-2)

تمهيد

كان لطبيعة الارتباط الوثيق بين الفكر الإسلامي والوحي الرباني أثر كبير في تحديد طبيعة خصائص هذا الفكر ومميزاته، فما تكاد تُذكر خاصية أو سمة لهذا الفكر إلا ونجد أثر الوحي فيها بارزا من حيث إنه المؤثر في تلك الخاصية، ويمكن القول إن خصائص هذا الفكر ليست ذاتية، بل إنها مكتسبة؛ على اعتبار أن الوحي قد أمد العقل المسلم بمنهج الاشتغال، كما أمده بالمبادئ الكلية للعمل. ويمكن الوقوف على جملة خصائص لهذا الفكر الإسلامي، نقتصر فيها على خمسة وهي:

الخاصية الأولى: الاستمداد المباشر من الوحي.

لعل أهم ما يميز هذا الفكر الإسلامي من حيث طبيعته هو استمداده المباشر من الوحي، كما سبق في بيان مصادره، وهو ما يجعل هذا الفكر يأوي إلى ركن شديد، عند اعتصامه بعروة الوحي الوثقى، وهو ما انعكس على طبيعة التصورات القائمة في ثنايا هذا الفكر في مختلف المجالات.

إن اعتماد هذا الفكر على هذا الوحي المعصوم قد أنار له سبلا كثيرة أظلمت على غيره من المذاهب والتيارات والعقائد والفلسفات التي ظلت تتقلب في وابل من الوهم وتؤسس عليه نظريات تقرنها فيما بعد بسلوكات وتصرفات تُقر العقول السليمة بفسادها. ويمكن تجلية محاسن استناد هذا الفكر الإسلامي إلى الوحي المعصوم في أمور منها:

- توسيع مجال إدراك العقل المسلم لقضايا الوجود غيبا وشهادة، بل حاضرا وماضيا ومستقبلا، ولا سبيل آخر يمكن أن يهدي إلى تلك الحقائق فضلا عن الهداية إلى وجه الحق فيها غير سبيل الوحي الذي هو سبيل الله.
- تلافى الفكر الإسلامي باستناده إلى الوحي العبث المعرفي الناجم عن انزلاق بعض المذاهب في بعض التصورات بسبب ضيق أفق العقل وضعف طاقته عن استيعابها، ومن ذلك قضايا الإلهيات، وأسئلة الأصل والوجود والمصير، فتاهت فيها العقول على نحو بعيد كل البعد عن المراد الإلهي من الخلق.

-في استناد هذا الفكر إلى الوحي المعصوم ضمان لتجدد هذا الفكر في كل جيل، بما يجعله دُولة بين كل الأجيال إلى قيام الساعة، فكم من المذاهب والفلسفات ماتت بموت روادها وحاملي لوائها، أو لاستنفادها أغراضا ظرفية كان تحققها إيذانا باندراسها وزوالها. على عكس هذا الفكر فإنه من خلال استناده إلى الوحي يبقى فكرا متجددا بتجدد النظر في الأصل الذي يستند إليه، ومن هنا فإن " منابع الفكر الإسلامي تكشف عن الإيجابية والتجدد والشمول والقدرة على التطور والحركة وفيض الحياة، وقد كان جوهر هذا الفكر الإسلامي وما زال عصريا صالحا لكل زمان ومكان".[1]

الخاصية الثانية: الصبغة الإيمانية العقدية لهذا الفكر.

تهيمن روح عامة على هذا الفكر تسبح في فلك تثبيت حقائق الإيمان والتوحيد، وهذا الملحظ ليس خاصا بمبحث العقيدة وعلم الكلام، بل هو روح تسري في جميع أنحاء جسم هذا الفكر وفي مختلف مظاهره؛ فعقيدة التوحيد لا يمكن أن تؤخذ فقط من أبواب العقيدة التي هي المنبع الأصلي لها، بل تجدها منثورة في كل مباحث الفكر الإسلامي؛ تفسيرا وفقها وأصولا وتصوفا صحيحا، وفلسفة إسلامية متزنة ونظام تربية أو اجتماع، أو اقتصاد... لأنها تعد إحدى مقومات هذا الفكر التي تتبعه في تصوره ونظرته لكل الأشياء. كيف لا وقد أرادت الشريعة لهذه العقيدة في أصل الوحي أن تهيمن على التصورات والأخلاق والسلوك الإنساني عامة، وهي ميزة تنفرد بها من بين سائر العقائد؛ ولذلك لابد أن يكون تصور الفكر لها كذلك. يقول سيد قطب رحمه الله: "حقيقةً أن التوحيد خاصية لهذا التصور، وهو المساحة التي تشمل حقيقة التوحيد في العقيدة الإسلامية، والجوانب التي تمتد إليها في هذا التصور، وفيما يقوم على هذا التصور من مشاعر وأخلاق وسلوك وتنظيم لجوانب الحياة الواقعية... فقد امتدت هذه الحقيقة إلى تصور المسلم للكون كله، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحذافيرها، كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها، خافيها وظاهرها، صغيرها وكبيرها...".[2]

وبهذا يكون هذا الفكر في أصله مرآة عاكسة لتجليات هذه العقيدة في كل التصورات والرؤى التي شكلها في مختلف العلوم والمعارف.

1 - من منابع الفكر الإسلامي، أنور الجندي: 04.
2 - خصائص التصور الإسلامي ومقوماته:190.

الخاصية الثالثة: الصبغة العِلمية لهذا الفكر.

كان من نتائج استناد الفكر الإسلامي إلى الوحي أن اهتدى إلى بناء مناهج علمية دقيقة أسس فيها حقائقه وتصوراته على منهج نابع من خصوصية تراثه، فكان أن اهتدى في هذا الشأن إلى تأسيس منهج علمي فريد، قطع فيه مع كل المناهج التي كانت سائدة وفي مقدمتها المنهج الأرسطاليسي اليوناني، الذي تؤدي مقدماته في كثير من الأحيان إلى نقض حقائق الإسلام وثوابته، فيما يُعتبر عند أصحابه من اليقينيات، والذي كان يُعبِّر عن الروح اليونانية في نظرتها إلى الكون وفي محاولتها إقامة مذاهبها في تفسير قضايا الوجود، ومعلوم ما تعرض له هذا المنطق من هجوم شديد من علماء المسلمين ومفكريهم، فكان لابد لزاما لمفكري الإسلام أن يؤسسوا منهجا علميا دقيقا يتناسب مع خصوصية حقائق الإسلام، ويتوافق مع مبادئ الوحي. يقول الدكتور علي سامي النشار:" لَفَظَ الإسلامُ علومَ اليونان لفظا قاسيا، وحاربها أشد المحاربة [فقد] كانت الروح الإسلامية تستمد مقوماتها من بيئة مخالفة، وجنس مخالف وتصور حضاري جديد، وتنأى أشد النأي عن النظر في العوالم اليونانية الفكرية من ميتافيزيقا وفيزيقا وغيرهما، فكان من المحتّم أن يكون لها منهج في البحث مختلف أشد الاختلاف عن منهج اليونان تستمد مقوماته من حضارتها العلمية، بحيث يكون طابعَ تلك الحضارة الأساسيَّ وجوهرَها الوحيد "[1].

وقد استطاع الفكر الإسلامي - فعلا- بفضل الاهتداء بالوحي أن يرسم له منهجا علميا دقيقا أسس به لكبرى اليقينيات في حقوله المعرفية المختلفة، والتي تعبر عن جوهر نظرته للكون ولقضاياه تفسيرا وبيانا... هذا المنهج الذي أسسه على منطق الاستقراء أو منهج الاستقراء، نبع من خصوصية منهجه المستمد من الوحي، وقطع به مع كل المناهج الأخرى الطاعنة - بما ارتكزت عليه من مقدمات ومبادئ - في دين الإسلام. ولذلك فإن هذا " يُثبت أن المسلمين لم يقبلوا أبدا هذا المنطق الأرسطاليسي، بل هاجموه ونقدوه أشد الهجوم وأعنف النقد، ثم وضعوا منطقا جديدا أو منهجا جديدا هو المنطق او المنهج الاستقرائي (...)[وهو في الحقيقة] نتاج العبقرية الإسلامية"[2] المنثور عند مفكري الإسلام من أصوليين وفقهاء ومتكلمين وغيرهم.

1 - مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، علي سامي النشار: 10-11
2 - مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د. علي سامي النشار: 9-11

لقد انطلق المسلمون بهذا المنهج وأقحموه في علوم مختلفة فسيجوا به حقائق تلك العلوم المستمدة من أصل الوحي، وردوا به في المقابل على كل منهج يتعارض مع مبادئهم وثوابتهم العقدية والتشريعية والأخلاقية...

وبهذا يكون الفكر الإسلامي قد أسس علومه على قواعد علمية دقيقة، وفي المقابل رفض كل منهج لا يتأسس على قواعد العلم المأخوذة من أصول الشريعة، فرفضوا الفلسفة الإشراقية الذوقية التي لهج بها السهروردي وأتباعه لعدم خضوعها للمنطق العلمي الذي تقر به قواعد الشريعة وتؤيده مقتضيات العقول السليمة [1].

الخاصية الرابعة: الوسطية.

من الخصائص التي اكتسبها الفكر الإسلامي جراء استناده إلى الوحي خاصية الوسطية، فإذا كانت الوسطية صبغة الله في دينه ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [2]، فإن هذا الفكر في مجمله قد أفاد من الوحي هذه الصبغة، فتأثرت بها نظرته للوجود واستند إليها في تفسير قضاياه.

وقد أثبت مسار هذا الفكر عبر التاريخ أن كل خروج عن منهج الوسطية مفسدٌ لطبيعة تصور هذا الفكر لحقائق الوحي الذي يستمد منه، ألا ترى أن فساد منهج الخوارج إنما كان بسبب التنكب عن منهج الوسط وكذلك يقال عن غلو الشيعة الروافض والباطنية والقدرية والجبرية وكل الاتجاهات التي استندت إلى الوحي لكنها مالت كل الميل إلى جهة واحدة على حساب جهات أخرى في فهمها وتصورها، ومن هنا فلا سلامة لهذا الفكر بغير أخذه روح هذا الدين وتعاليمه بمنهج التوسط والاعتدال، ولذلك حرص النبي الكريم عليه الصلاة والسلام على تقويم فكر من قصدوا المغالاة في العبادة والانقطاع الكلي لها، فأعاد عليه الصلاة والسلام تصحيح مقتضى الاتباع على أساس التوسط **" فمن رغب عن سنتي فليس مني"**[3].

1 - مناهج البحث عند مفكري الإسلام، واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د. علي سامي النشار: 304 وما بعدها.
2 - البقرة: 142.
3 - متفق عليه.

الخاصية الخامسة: عقلانية هذا الفكر[1].

المتأمل في طبيعة هذا الفكر يجده مصطبغا بصبغة أخرى هي صبغة العقلانية؛ ونريد بها أن هذا الفكر بما هو جهد عقلي إنساني لفهم حقائق الوحي والانطلاق منها لتفسير قضايا الوجود، وضبط التصورات تجاهها، فإن تلك المبادئ التي ارتكز عليها العقل المسلم وجدَ الشريعة تقرها وتعتبرها، فلم يحصل لهذا الفكر تعارض ما بين مبادئ النقل ومقتضيات العقل، فانطلق يُحَاجُّ العقائد الفاسدة والمذاهب الباطلة ببراهين هذا الشرع التي تقرها العقول، فأسس بذلك حججا دامغة صاغها في إطار قواعد علمية تُجمع على صحتها كل العقول، وهذه ميزة انفرد بها المنهج الإسلامي الذي تصاحب فيه العقل والنقل، بخلاف المرجعيات الأخرى قديمها وحديثها التي أججت على الدوام وما تزال نار الصراع بين الدين والعلم (العقل)، بينما نجد المنهج الإسلامي في كل تصوراته يهتدي بهدي الشرع الجاري على مقتضى العقول، وقد نَذَرَ ابنُ تيمية رحمه الله كتابَه " درء تعارض العقل والنقل" لدحض شبهات القائلين بالتعارض بينهما بما في ذلك قضايا العقيدة في مختلف أبوابها، يقول رحمه الله: "وقد تأملتُ ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانُها، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملتُه في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القَدَر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفْه سمع قطّ، بل السمع الذي يُقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمجالات العقول بل بمجاراة العقول، فلا يخبرون بما يَعلم العقلُ انتفاءَه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته"[2].

تلك إذاً بعضٌ من خصائص هذا الفكر التي استمدها من اعتماده على الوحي في بناء رؤيته وتصوره لقضايا الوجود، وسعيه لتفسيرها.

---

1 - هذا المبدأ لا يتنافى مع ما سبق بيانه من تبعية العقل للشرع وعدم تقدمه عليه في نطاق هذا الفكر الإسلامي، فالقصد التنبيه على تأثر هذا الفكر بمبادئ الشريعة التي جاءت على وفق مقتضى العقول والفِطر السليمة.

2 - درء تعارض العقل والنقل:147/1.

تحديات الفكر الإسلامي المعاصر (1-2)

تمهيد.

كثيرة هي التحديات التي واجهت الفكر الإسلامي المعاصر، والتي حتمت عليه القيام بوظيفة بث الوعي في الأمة، وخاصة بعد احتكاك البلاد الإسلامية بالدول الاستعمارية التي لم تقصد إلى نهب خيرات الأمة وحسب، بقدر ما كان سعيها جاهدا إلى العمل على محو هوية المسلمين، والعمل على طمس معالم الدين في حياتهم، من خلال بث كثير من الشبهات حوله، وكذا السعي إلى تشويه معالمه في نفوس أجيال الأمة، فضلا عما رافق ذلك من تمجيد للإنسان الغربي ولثقافته وحضارته القديمة منها والحديثة، واعتبارها هي الأصل وغيرُها استثناء، فاتخذ الأمر هذه الازدواجية القائمة على أمرين " أولهما محاربة الإسلام وإبعاده عن العقول والنفوس والإرادة، ونفيه عن الثقافة والحضارة والمؤسسات، وثانيهما إعادة صياغة الأفكار والثقافة والحياة الحضارية والمؤسسات على أسس غربية؛ بحيث تُصبح مدارس الفكر والفلسفة الغربية هي النماذج، وهي الدليل لفكر الأمة، أو على الأقل بالنسبة لفكر قادتها وأهل الرأي فيها، بحيث تحل قيم الحضارة الأوربية الغربية مكان القيم الحضارية الإسلامية"[1].

وخليق بالذكر أن طبيعة التحديات التي واجهت الفكر الإسلامي لم تكن على نطاق واحد، بل شملت كل المجالات، بما يجعلها مشروعا قائما بذاته لبسط نفوذ الفكر الغربي في الأمة، وزاد من حجم تلك التحديات أن وجدت لها آذانا صاغية من داخل الساحة الإسلامية، فلم يتوان المتأثرون بفكر الغرب المنبهرون بنظرياته في الطعن في مبادئ الإسلام وقيمه، والعمل على تبخيسه في نفوس الأجيال من خلال كتاباتهم ونظرياته الفكرية والاجتماعية والتاريخية... التي لهجوا فيها بمبادئ الغرب، وهو ما جعل التحدي أكبر بالنسبة للفكر الإسلامي في مواجهة هذا الفكر الدخيل المزدوج من حيث جبهاته؛ أقصد الداخليةَ والخارجية معا.

لقد سعى رواد الفكر الإسلامي المعاصر إلى دحر كل تلك الشبهات استنادا إلى المرجعية الإسلامية، التي أثبتوا من خلالها أصالة المفاهيم الإسلامية وقدرتها على مواكبة كل التحديات.

1 - الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، منير شفيق.:84.

ومن جملة التحديات التي واجهت الفكر الإسلامي المعاصر نذكر تمثيلا لا حصرا:

- **إثارة الشبهات حول دين الإسلام، والسعي لتشويهه في نفوس المسلمين.**

عملت الدوائر الغربية الحديثة ومعها الدوائر الاستشراقية بمختلف مدارسها على إثارة الشبهات حول دين الإسلام، وبثها في صفوف المسلمين، وكان القصد من ذلك تشويه حقائق هذا الدين، سعيا لإضعافه في نفوس من يحمل رسالته عقيدة وشريعة وسلوكا. ويذهب رواد الفكر الإسلامي الحديث إلى أن الحملة التي شُنت على دين الإسلام من طرف الدوائر الغربية، وخاصة في مراحل الاستعمار الحديثة، لم تكن كسابقاتها من الحملات الصليبية التي عرفتها بلاد المسلمين عبر التاريخ، والتي كانت تستهدف المسلمين في مظاهر حياتهم الخارجية[1]، إلا أنها قصدت هذه المرة اجتثاث تلك العقيدة التي تُخرج من هذه الأمة أجيالا متمسكة بدينها، واعية برسالتها في الحياة تمام الوعي؛ فتَبلَّغ المستعمر بكل ما يملك من الوسائل لطمس هذا الدين في نفوس الأجيال، وقطع صلتها بكل المنابع التي تغذي جذوة الدين فيها، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:" إن الاستعمار دائب على تخريج أجيال ملحدة، وهو يُغذي في إلحاح كل عمل يطرد الإيمان من القلوب ويشيع المنكر في المجتمع (...) وغايته التي ظهرت من طَوْل سعيه مع شدة خُبثه وتكتمه هي القضاء على الإسلام والمسلمين في أوطانه، وردم المنابع التي تُمِدّ الناشئة بتعاليمه، وتُبصرهم بحدوده وحقوقه".[2] ولهذا لم يألُ الغربيون جهدا في تشويه هذا الدين، وإخراج حقائقه في أبشع الصور المنفِّرة من سماحة منهجه وهديه، على نحو تعتقد فيه الأجيال أنه دين لا أساس له من الحق[3]، فسعوا "إلى تجهيل المسلمين في دينهم والإشراف على المدارس لتخريج متعلمين إن لم ينكروا الإسلام فهم غرباء عليه"[4]، وكانت هذه فعلا من الوسائل التي تمكنوا بها من إضعاف المسلمين في بلدانهم[5] طمعا في بسط السيطرة الكاملة على مختلف جوانب حياتهم.

ومما ساعد الدوائر الغربية على تحقيق بعض من مراميها في تشويه حقائق الدين عنصران:

1 - الاستعمار أحقاد وأطماع، الشيخ محمد الغزالي:11.
2 - الاستعمار أحقاد وأطماع:11.
3 - الاستعمار أحقاد وأطماع:213.
4 - الاستعمار أحقاد وأطماع:211.
5 - الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي:23.

-أولهما: المستشرقون[1] الذين وكل إليهم جزء كبير من هذه الوظيفة حيث انطلقوا إبان هذه الحملة بمختلف مدارسهم ومناهجهم لتشويه الدين من خلال مؤلفاتهم الغزيرة ودراساتهم الكثيرة، فلم يسلم مجال من مجالات الحياة الإسلامية من سيف ألسنتهم الحداد، سواء في مجال العقيدة الإسلامية أو الفقه أو السيرة النبوية... كل ذلك درسوه وفق مناهج غربية اعتبروها يقينا لا يمارى في صحته، وأسقطوا نتائج تلك المناهج على كل مناهج التراث الإسلامي، والنتيجة تجريد كل ما له صلة بالدين من كل معانيه القدسية والروحية ومن كل خصوصياته التي إنما تفهم من داخل تلك المناهج الإسلامية التي هي لصيقة بخصائص الوحي لا من خارجها، وقد تفننت تلك المدارس الاستشراقية في عرض دراساتها الطاعنة في دين الإسلام بين الطعن المباشر الذي يجاهر بالعداء الصريح لقيم الإسلام ومبادئه، من قبيل السخرية من الوحي ومن حقيقته وكيفيته[2]، وبين استدراج أصحاب العقول القاصرة إلى إثبات حقائق ظاهرُها مدح للإسلام وتراثه ومناهجه العلمية، وباطنها نسف لكثير من المُسَلَّمَات التي هي من الأركان الكبرى لعقيدة المسلم ومنهج تصوره للدين، فبعض المدارس التي عكفت على دراسة السيرة النبوية لم تستنكف أن تمدح النبي صلى الله عليه وسلم وتثني على منجزاته، لكنها تنظر إلى تلك المنجزات على أنها من عبقرية النبي صلى الله عليه وسلم ومن محض تدبيره البشري، لا من صلته بالوحي وتأييده به، ولهذا لا تكاد تجد من هذه المدارس الاستشراقية من تجرد لدراسة أحد مناهج التراث الإسلامي بكل موضوعية إلا لماما. وبهذا كانت الدوائر الاستشراقية إحدى الوسائل التي تبلغ بها المشروع الغربي في سعيه لتشويه حقائق هذا الدين وإضعافه في نفوس المسلمين، يقول الشيخ محمد الغزالي:" أما الإحاطة بالإسلام وشؤونه المختلفة، فقد وُكلت إلى مئات المستشرقين الذين انكبوا في جَلَد ومصابرة على ثقافة الإسلام الخصبة، وعلى تاريخه في كل بلد، ثم ألفوا بعد ذلك مئات الرسائل والكتب كانت لبني قومهم شعاعا يسيرون على هديه وهم يقتحمون البلاد. (...) والمستشرقون قبل كل شيء نصارى متعصبون لجنسهم ودينهم (...) والصور التي يقدمونها للإسلام ناضحة بما أكنوا في أنفسهم من عداوة لهذا الدين، وبما بيّتوا من شر لأهله"[3].

ويمكن تلخيص وظيفة المستشرقين في دراساتهم للدين الإسلامي في نزعات ثلاث:

1 - هم علماء الغرب الذين يدرسون دين الإسلام وحضارة المسلمين ومجتمعات الشرق المصطبغة بصبغة الدين الإسلامي.
2 - الاستعمار أحقاد وأطماع:212.
3 - الاستعمار أحقاد وأطماع:212.

أولاها- السعي لإضعاف القيم الدينية الإسلامية، بمنحى يضعف التمسك بها، ويخلق الشك في نفوس معتنقيها، والغاية ضرب القناعات في صلاحيتها منهجا للحياة.

وثانيها العمل على تمجيد القيم الغربية وتقديمها على أنها الأصل في كل شيء.

وثالثها إذكاء الروح الصليبية في دراسة الإسلام، فكان أن لبست ثوب البحث العلمي وخدمة الغاية الإنسانية المشتركة.[1]

-وثانيهما المتغربون من بني جلدة المسلمين المتأثرون بفكر الغرب ومبادئه الناقمون على أمتهم ودينهم، والذين هددوا حصون الأمة من داخلها ففتحوها مشرعة لأعدائها، فكانوا أكبر خطر على الأمة، لأن عدوها الخارجي لا يستطيع بكل حال أن يفل وحدتها، أما هؤلاء فإنهم ينخرون في جسم الأمة الداخلي، "وشر ما يطرأ على المعاقل من الوهن أن تؤتى من بعض الذين وُكل إليهم حمايتها والدفاع عنها، حين يخونون الأمانة فيتسللون متلصصين إلى الأبواب يفتحونها للأعداء المهاجمين بليل، والحماةُ الساهرون في غفلة لا يشعرون".[2]

وجدير بالذكر أن هذا الصنف من المفكرين المُمالئين للغرب الناطقين باسمه؛ كانوا على صنفين: صنف ترعرع في بيئة المسلمين، غير أن مبادئ الغرب سلبت فكره فأضحى يلهج بكل ما يدعو إليه الغرب، فخرقوا صف المسلمين وشقوا عصا الولاء للمبادئ والقيم الإسلامية في شكل دعوات ظاهرها التجديد وباطنها السعي لهدم الدين، ففي الهند على سبيل المثال ظهرت حركتان تشبعتا بفكر الغرب وسعت إلى خلق الفوضى الفكرية في البلاد الإسلامية، وهما الحركة القاديانية والحركة الأحمدية، اللتان عملتا على هدم كل أسس الإسلام إلى درجة ادعاء النبوة لبعض زعمائها.

وصنف ثان من أبناء هذه الأمة درسوا في ديار الغرب من خلال بعثات أراد القائمون عليها أن يُصدِّروا للعالم الإسلامي نوعية خاصة من المفكرين الذين عادوا – وليتهم ما عادوا- إلى البلاد الإسلامية لينفثوا فيها سموم الغرب، والنتيجة أن هؤلاء هددوا حصون المسلمين من داخلها، واجتهدوا في رسم خريطة نهضتها على منهج واحد؛ ذلك الذي يتحتم عليها أن تترك ما عندها وتهرع إلى اعتناق ما عند الغرب من علوم ومناهج وحقائق حتى ولو كانت مصادمة لأصل الشرع

1 - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي:39، وما بعدها.
2 - حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين:18.

وتوجيه الوحي، ومن أمثال هؤلاء نجد رفاعة الطهطاوي الذي كتب " تخليص الإبريز" وطه حسين من خلال كتابه " مستقبل الثقافة في مصر" وسلامة موسى في كتابه "ما هي النهضة؟" وغيرهم كثير. يقول طه حسين:" إن مقياس رقي الأفراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف الطبقات إنما هو حظنا من الأخذ بأسباب الحياة المادية الأوربية، وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة"[1] ليرسم بعد ذلك منهج الرقي ويحدده في " أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها".[2]

- **الطعن في اللغة العربية والسعي لتجريدها من كل ما تحمله من المعاني باعتبارها لغة الوحي.**

من التحديات التي عرضت للفكر الإسلامي ما تعرضت له اللغة العربية من حملات من قبل الدوائر الغربية والمدارس الاستشراقية وكذا رواد الحركة التغريبية الذين عملوا جميعهم على تجريد هذه اللغة من كل حمولاتها وخصائصها، وتقديمها على أنها لغة قومية بسيطة من خلال مقارنتها بباقي اللغات وخاصة اللاتينية، وقد عمل أصحاب هذا التيار على ذلك من خلال:

-الطعن في لغة القرآن الكريم بنسبتها إلى النثر أحيانا وبمحاولة نفي كل جدة أو إعجاز فيها[3] أحيانا أخرى كما فعل زكي مبارك في كتابه " النثر الفني" حيث يقول:" والخلاصة أن القرآن نثر وأنه دليل على أن العرب كان عندهم نثر فني قبل الإسلام (...) فلا مفر من الاعتراف بأن القرآن يُعطي صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية".

-نزعها من حضانة الدين والقرآن[4]؛ لأنهما من أقوى العوامل التي حفظت للغة قوتها وكفلت لها الاستمرار عبر العصور، ولذلك نادى القائمون على هذا المشروع من أمثال طه حسين بأن اللغة العربية ليس ملكا لرجال الدين؛ بل إن كل من استوفى الشروط يحق له أن يتصرف فيها تصرف

1 - مستقبل الثقافة في مصر:31.
2 - مستقبل الثقافة في مصر: 45.
3 - الاستعمار أحقاد وأطماع:214
4 - حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين:164.

المالك لها[1]. ولا يخفى أن نزعها من حضانة الوحي قد مهد الطريق لهؤلاء ليُخرجوا للأجيال لغة فاقدة لجل مقوماتها وخصائصها التي حافظت عليها لقرون عديدة.

-إهانة اللغة العربية وتصويرها على أنها لغة التخلف التي لا تستطيع مواكبة التقدم العلمي الذي تشهده الحضارات، فلا مندوحة عن تجاوزها لمسايرة الركب[2].

-إحياء الدعوات إلى اعتماد العامية في التعليم وغيره[3] بما يضعف جذوة التعلق باللغة العربية في نفوس الناشئة، وإنما كان القصد بالدرجة الأولى قطع صلات الأجيال بالوحي كتابا وسنة.

لقد تبلغ القائمون على مشروع الطعن في اللغة العربية بكل وسيلة توصلهم إلى تحقيق مآربهم، وقد كانت حملتهم في هذه الساحة شعواء بالنظر إلى ما تمثله اللغة العربية من جسر لفهم الوحي الذي هو بوابة الالتزام بمبادئه، فكان القصد قطع كل الطرق التي تربط الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها.

- **هدم منظومة الأخلاق في المجتمعات الإسلامية.**

من التحديات الكبرى التي واجهت الفكر الإسلامي الحديث ما يرتبط بما تعرضت له المجتمعات الإسلامية المعاصرة من حملات استهدفت منظومة القيم والأخلاق الإسلامية التي أيقن أعداؤها من الداخل ومن الخارج أن السيطرة على الأمة في فكرها ومعتقداتها، لا تكون دون السعي لإعادة تشكيل مسمى القيم والأخلاق في ذهن أجيالها، فسعت إلى فصل ارتباط الأخلاق بالدين، باعتماد النظريات الفلسفية القائمة على إنكار ثبات القيم الأخلاقية والدينية، وهو جوهر ما تقوم عليه نظرية "فرويد"، أو تلك النظريات التي تدعو إلى إزالة القداسة عن القيم الدينية والأخلاقية كما شأن نظرية "دوركايم". والنتيجة أن المجتمعات الإسلاميةَ خاصة في فترات الاستعمار وما بعدها شهدت دعوات إلى التحرر من كل القيم الأصيلة التي عاش عليها المسلمون، والتي هي جزء لا يتجزأ من حقيقة دينهم ومعتقدهم.

لقد قامت هذه الحملات في طريق استهدافها لقيم المسلمين وأخلاقهم المستمدة من صميم دينهم على الدعوة إلى التحلل من كل ما يمنع الإنسان من تلبية رغباته ونزواته، فقامت دعوات تنادي

1 - ينظر كتابه " مستقبل الثقافة في مصر":230.:
2 - مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، الشيخ محمد الغزالي: 67.
3 - حصوننا مهددة من داخلها: 189.

بالاختلاط الماجن بين الجنسين، وأخرى برفع القيود عن الفواحش باسم الحرية الشخصية، وأخرى إلى تحرير المرأة[1] من كل ما يثقل كاهلها من توجيهات الدين في اللباس وسائر الأحكام – بزعمهم[2].

- **العمل على تشويه التاريخ الإسلامي.**

لقد انكبت التيارات الغربية والاستشراقية وتبعهما في ذلك المتأثرون بفكرهما من المتغربين على دراسة التاريخ الإسلامي وتتبع مختلف مراحله من زمن البعثة إلى المراحل المعاصرة، فحاولت تلك الجهات تشويه أحداثه ووقائعه على نحو يجعله تاريخا مليئا بالصراعات، كما عمدت لإثارة الشبهات حوله خاصة في بعض الفترات التي شهدت اختلافا بين أهله، وقد تبلغت الأوساط الغربية وأتباعها من المستشرقين والمتغربين إلى هذا المأرب باعتماد النظرة المادية في تفسير هذا التاريخ، وخاصة المنهج الماركسي القائم على حتمية الجدلية المادية التي ترى بأن التاريخ تتحكم فيه قوة مؤثرة هي قوة الاقتصاد؛ وبخاصة عنصري المال والعمل، وتنكر كل المؤثرات الأخرى التي يمكن أن يكون لها مدخل في صناعة أحداث هذا التاريخ.

لقد انطلق الغربيون من منهج التفسير المادي للتاريخ وجعلوه أصلا يُقاس عليه ما سواه من تواريخ الأمم، فكان أن أسقطوه على التاريخ الإسلامي إسقاطا فجًّا، فشوهوا به حقائقه، ومن مرتكزات هذا المنهج نذكر:

-اعتبار التاريخ الغربي هو الأصل وما سواه تبع له؛ بحيث عملت " هذه المناهج على أن تقدم تاريخ العالم كله، وبضمنه تاريخنا نحن من زاوية نظر غربية إقليمية تجعل أوربا مركزا للعالم تدور حول قطبه كل المساحات الأخرى في الأرض"[3]

-اعتماد منهج إسقاط حقائق تاريخهم على التاريخ الإسلامي، فما كان لهم من صراعات غَذَّتها النزعات المادية حاولوا أن يوجِدوا لها نماذج في تاريخ المسلمين.

-لما كان التاريخ الغربي هو الأصل لما سواه حسب ما يقضي به هذا المنهج المادي، فقد حقبوا التاريخ الإسلامي على وفقه، فاعتبروا العصور الوسطى عصور ظلام وتخلف بالنسبة للبشرية كلها، في حين أنها ليست كذلك بالنسبة للتاريخ الإسلامي؛ ففي الوقت الذي كان فيه الأوربيون

1 - كما هو الشان بالنسبة لقاسم أمين في كتابه "تحرير المرأة".

2 - تنظر أبعاد هذا الجانب الأخلاقي في كتابي "الاستعمار أحقاد وأطماع":12 و" ظلام من الغرب": 173 وما بعدها، للشيخ محمد الغزالي، :212. وكذا كتاب" حصوننا مهددة من داخلها، محمد محمد حسين: 59-96.

3 - في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج والتحليل، د. عماد الدين خليل:194.

يتخبطون في وحل التخلف؛ كان المسلمون يرتقون في مدارج الرقي الحضاري، ويعيشون نهضة حضارية وعلمية كبيرة، ترجمتها حجم النظريات في مختلف العلوم والفنون التي استثمر الغرب جزءا منها في نهضته الحديثة.

-لما كان هذا المنهج المادي هو المعتمد في تفسير التاريخ الإسلامي على نحو ما رسمه رواده ك "ماركس" و"إنكلز"، والقائم على إنكار المبادئ الدينية والأخلاقية؛ فمن الطبيعي أن يُقصي كل العوامل التي صنعت تاريخ المسلمين، وفي مقدمتها الاستناد إلى توجيه الوحي، وكذا أثر القيم الروحية والدينية في تغيير موازين هذا التاريخ، فكان عجزُه واضحا في تفسير سرعة انتشار الإسلام، وفي سرعة قيام حضارته التي اختصرت المسافة في صناعة التاريخ وبناء الإنسان والحضارة؛ " فهذه المناهج التي لا يمكن بحال أن تقدم تفسيرا معقولا شاملا لتاريخنا الإسلامي... فهي إن نجحت في تفسير وتقييم التاريخ الغربي ، فستُخفق حتما في تفسير التاريخ الإسلامي، ذلك لأنها مناهج لا تقوم على أساس متوازن ينظر إلى القيم المادية والروحية كعوامل فعالة مشتركة في صنع التاريخ، بل على العكس تسعى بدافع من علمانيتها إلى ترجيح الدافع المادي وتقليص الدوافع الروحية في حركة التاريخ، بل طمسها أحيانا وإنكارها أساسا كعوامل فعالة في تاريخ البشرية".[1]

والخلاصة مما سبق أن الدوائر الغربية باعتمادها لمنهج الإسقاط قد أمعنت في تشويه حقائق هذا التاريخ، والقصد من كل ذاك فصل الأمة عن تاريخها؛ لأن الأمة التي لا تقرأ تاريخها لا تستطيع ان ترسم مستقبلها.

- **إحياء النعرات القومية السابقة للإسلام كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية... في البلاد الإسلامية.**

كان الفكر الإسلامي وبخاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية أمام حملة من العصبيات القومية التي دعا أصحابها إلى إحياء النعرات السابقة للإسلام، وكان القصد من ذلك طمس الهوية الإسلامية من وعي الشعوب المسلمة، وضرب مبادئ الإسلام ومقومات هويته الحضارية، والسعي لاستنساخ التجربة الأوربية في البلاد الإسلامية التي بنت نهضتها على تراثها اليوناني، ففي مصر مثلا قام" دعاة العزلة والانفصال الذين كانوا يعارضون الإسلام والعروبة بالفرعونية في الفترة التي تلت إلغاء

1 - في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج والتحليل، د. عماد الدين خليل:194.

الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى، فقد كان يزعم هؤلاء الدعاة من الانفصاليين والهدامين أن تغير الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم إلى الإسلام، وتغير الكتابة فيها من الهيروغليفية إلى العربية لم يقطع ما بين مصر القديمة ومصر الحديثة من صلات، وكانوا يحتالون لرد حياتنا المعاصرة في مختلف مظاهرها إلى أصل فرعوني قديم، ويدْعون إلى أن تقوم نهضتنا على بعث المجد الفرعوني القديم، مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث التراث اليوناني والروماني في عصور الوثنية السابقة على المسيحية".[1]

- **العمل على زرع بعض الحركات المنحرفة عقيدة وسلوكا ومنهجا في المجتمعات المسلمة وتقديمها على أنها تمثل حركات النهضة الحديثة.**

واجه الفكر الإسلامي الحديث تحدي بث الدوائر الاستعمارية الغربية ومعها المدارس الاستشراقية لبعض الحركات والمذاهب الفكرية الهدامة داخل المجتمعات المسلمة، والتي سعت إلى نقض بنيان الإسلام من الداخل بما تبنته من المعتقدات المعارضة جملة وتفصلا لهدي الإسلام، والغريب أن الغرب ومعه المدارس الاستشراقية قدما تلك المدارس والحركات على أنها تُمثل حركات النهضة الإسلامية المعاصرة، فعَمِلا على احتضانها ودعمها، كما وقع مع الحركة الأحمدية والقاديانية والبهائية التي عملت جميعها على إثارة الشبهات عن دين الإسلام" فالقاديانية كانت تنشر في العالم الإسلامي الفوضى الفكرية، وعدم الثقة بمصادره الصحيحة وسَلَفِه، وتقطع صلة هذه الأمة عن ماضيها وخير أيامها وأفضل رجالها، وتفتح باب الأدعياء والمتطفلين على مصراعيه، وتسيء الظن بقوة الإسلام وحيويته وإنتاجه، وتُيَئِس المسلمين من مستقبلهم"[2].

أمام ما سبق ذكره من التحديات الجسيمة، وجد علماء الأمة عامة، ورواد الفكر الإسلامي على وجه التحديد أنفسهم في مواجهة هذه التحديات، والتي تختلف كثيرا عما عاشته الأمة في مختلف مراحل تاريخها الذي احتكت فيه بغيرها من الأمم، ففضلا عن عدم تكافؤ إمكانات المواجهة بين الجبهتين[3]، تطفو إلى السطح طبيعة هذه التحديات التي لم تستثن جانبا من جوانب الحياة الإسلامية،

1 - حصوننا مهددة من داخلها: 48.

2 - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي:37.

3 - ناقش هذه الفكرة وبسطها الأستاذ منير شفيق في كتابه" الإسلام وقضايا الانحطاط المعاصر": 177، تحت عنوان: الإسلام وشروط المواجهة، ومن بين ما أورد فيه:" إذا كانت العملية التاريخية التي تواجه الأمة تحمل في طياتها اختلالا كبيرا في ميزان

مما جعل رواد الفكر الإسلامي ينبرون للدفاع عن الإسلام والمسلمين، سواء في وجه التحديات الخارجية أو الداخلية، فبرزت حركات الوعي في مختلف البلدان الإسلامية التي سعت بما كتبته إلى نقض غزل الدوائر الغربية والاستشراقية وحركات التغريب، وإعادة الثقة للمسلمين في مبادئ دينهم وقيمهم الأصيلة، كما لم يفتها الدعوة إلى إعادة تشكيل العقل المسلم[1] بما يتناسب مع حجم التحديات الحضارية الملقاة على كاهل الأمة.

القوى بينها وبين أعدائها الخارجيين، أو بينها وبين تحقيق أهدافها؛ الأمر الذي يدفع الكثير من أهل التغريب إلى اليأس وبعضهم إلى الاستسلام أو إلى المساومات على الحقوق ما دامت ترتكز على حساب موازين القوى المادية المتمثلة في الجيوش والقدرات العسكرية والصناعية والعلمية والتقنية، فإن الإسلام يمكن ألا يدفع إلى مثل هذه المواقف بسبب ما يبثه من إيمان بالله، ويوفره من قوة روحية دون أن يغفل ضرورة الحساب الدقيق لميزان القوى في المجالات المادية".

1 - يُنظر ما كتبه الدكتور عماد الدين خليل في كتابه:" حول إعادة تشكيل العقل المسلم"، فقد حاول رسم منهج الاستئناف الحضاري للعقل المسلم من خلال انطلاقه من قيمه الأصيلة وضرورة امتلاكه لمفاتيح العلوم الحديثة وهو ما يحقق مسمى نهضة العقل المسلم الشاملة.

قضايا الفكر الإسلامي المعاصر (1-2).

تمهيد

كثيرة هي القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي المعاصر، سواء منها ما يرتبط بالتحديات التي سبق ذكرها، أو مما يقع خارج نطاقها، ومما يميز طبيعة هذه القضايا كونها تستهدف في مجملها الوحي الرباني في مختلف امتداداته التشريعية عقيدة وسلوكا ومنهج حياة، حيث كان محط اهتمام مختلف المدارس الغربية والاستشراقية ومعهما التيار التغريبي، كل أولئك في مقابل حركة الوعي التي قادها رواد الفكر الإسلامي المعاصر في ظل معركة غير متكافئة القوى والإمكانات.

وجدير بالذكر أن الصراع الفكري الذي احتدم في هذه القضايا المعاصرة بدأت أصوله وجذوره الكبرى مع الحركات الاستعمارية للبلاد الإسلامية، سعيا لبسط نفوذها عليها، لتُغذيه فيما بعد المدارس الاستشراقية، وينتهي الأمر إلى حرب فكرية بالوكالة خاضتها وتخوضها إلى اليوم التيارات التغريبية في المجتمعات المسلمة، والتي لم تتوان في مهاجمة كل ما له صلة بالدين الإسلامي.

وسنقتصر في هذه الورقات على بعض نماذج القضايا الكبرى التي شغلت الفكر الإسلامي المعاصر[1]، على أن نشير إلى البعض الآخر كلما أسعف السياق في ذلك.

1- الفكر الإسلامي وسؤال النهضة في المجتمعات المسلمة المعاصرة.

من القضايا الكبرى التي شغلت الفكر الإسلامي في العصر الحديث ما يرتبط بسؤال النهضة، والذي جاء نتيجة الاحتكاك المباشر للحضارة الغربية بالمسلمين إبان الحملات الصليبية المعاصرة. هذا السؤال فرضه واقع المسلمين المنحط في مختلف جوانب حياتهم، والذي ترجمه آنذاك توالي سقوط البلدان الإسلامية في يد الدول الاستعمارية، لينتهي بسقوط الخلافة العثمانية باعتبارها رمزا

1 - ذِكْرُنا لبعض هذه القضايا لا يعني حصرَها، بل ثمة قضايا كبرى غير ما ذُكر في هذه الورقات شغلت وما تزال تشغل الفكر الإسلامي المعاصر إلى اليوم منها قضايا التنمية بمختلف أبعادها، ومنها القضايا الاجتماعية وفي مقدمتها قضية المرأة والأسرة ...، ومنها كذلك القضايا السياسية وخاصة الديموقراطية وأسس الحكم، ومنها قضايا ذات طبيعة اقتصادية ترتبط بالأنظمة العالمية التي بسطت نفوذها في القرنين الأخيرين وعلى رأسها الاشتراكية والرأسمالية، وقضايا الفكر في صلتها بالتراث الإسلامي، وبخاصة مناهج قراءة التراث المعاصرة، وقضايا أخرى في شتى مجالات الحياة الإنسانية.

من رموز وحدة المسلمين التي لطالما قضّت مضاجع الغربيين، ثم يُؤَكِّدُ بتوالي النكبات التي تعرضت لها الأمة وعلى رأسها احتلال فلسطين، وتوطين اليهود بها ...

أمام هذا الواقع المرير، انطلق العقل المسلم التائه في ركام التخلف يبحث عن سبيل للنهضة وإيجاد أقرب المسالك لاستئناف السير الحضاري ونفض غبار الانحطاط الذي يشل حركة الأمة عن الانطلاق، فكان أن سعى رواد الفكر الإسلامي إلى تجديد صلة الأمة بتراثها الأصيل، والسعي لإعادة اكتشاف الذات المسلمة من خلاله، لكن مع ضرورة الوعي بمفاهيم الحضارة الحديثة وما باتت تفرضه من أساليب في المواجهة تقتضي ضرورة التجديد في طبيعة الخطاب الديني، على نحو يُمكِّن العقل المسلم من فقه سنن التدافع الحضاري على وجهها الصحيح[1]، يقول سيد قطب رحمه الله في كتابه معالم في الطريق:" إننا دون شك نملك شيئا جديدا جدة كاملة ، شيئا لا تعرفه البشرية، ولا تملك هي أن تنتجه، ولكن هذا الجديد لابد أن يتمثل في واقع عملي لابد أن تعيش به الأمة، وهذا يقتضي عملية بعث في الرقعة الإسلامية، هذا البعث الذي يتبعه على مسافة ما بعيدة أو قريبة تسلم قيادة البشرية"[2].

غير أن الدعوة إلى تأسيس نهضة حضارية من مقومات الهوية الإسلامية لم تكن وحدها في ساحة الفكر الذي نشأ في واقع الأمة، بل كانت هنالك تيارات ترى نقيض هذه الرؤية، وتُلخص الجواب عن سؤال النهضة الحديثة للأمة في ضرورة التخلي عن كل ما له صلة بالتراث الإسلامي[3]، والإقبال على المدنية الغربية بعجرها وبجرها، فتلك هي السبيل الوحيدة لإخراج الأمة من مآسيها ونكباتها، وهذه التيارات هي المُمالئة للغرب في فكره ومبادئه، يقول سلامة موسى أحد رواد هذا الفكر:" لا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوربية للحرية والمساواة والدستور، مع النظرة العلمية الموضوعية للكون".[4]

1 - سبق معنا الحديث عن أهم المدارس الفكرية التي حاولت تجديد الفكر الإسلامي الحديث فلا داعي لإعادته في هذا المقام فليراجع في مكانه.

2 - معالم في الطريق، سيد قطب:11.

3 - يذهب الدكتور محمد عابد الجابري في كتاباته إلى أن العودة إلى التراث بفهم السابقين، أحد عوائق نهضة العقل العربي المعاصر، لأن العودة إليه تمثل سلطة السلف على الخلف في التفكير، ففي كتابه" نحن والتراث": يقول:" كيف نتحرر من سلطة التراث علينا؟ كيف نمارس نحن سلطتنا عليه؟" (...) " إن ما ندعو إليه هو التخلي عن الفهم التراثي للتراث، أي التحرر من الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث" نحن والتراث:19.

4 - "ماهي النهضة؟"، سلامة موسى:108.

والخلاصة أن سؤال النهضة كان محط اهتمام من الفكر الإسلامي، فقد شغل مساحة كبيرة خاصة مع وجود تيار داخلي يحاول إعلاء سطوة الغرب، من خلال مصادرته لكل تصور للنهضة، وهو ما حدا ببعض الكتاب إلى صياغة شروط متكاملة للنهضة الإسلامية كما فعل مالك بن نبي رحمه الله في كتابه "شروط النهضة"[1].

2- الفكر الإسلامي وسؤال الحداثة وما بعد الحداثة.

من القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي المعاصر ما يرتبط بسؤال الحداثة وما بعد الحداثة، هذا السؤال الذي جاء ليمثل صورة أخرى من صور الارتماء في أحضان الفكر الغربي، في سعي أصحابه إلى رسم مستقبل الأمة وكيفية خروجها من واقع النكسات التي توالت عليها في العصر الحديث. وقد قامت فكرة الحداثة في جذورها الأولى على فكر الأنوار عند الأوربيين، الذي أعلن عن مركزية الإنسان ونزعته الفردية، فقدست فيه نزعته العقلانية والمادية، إلى درجة الاعتقاد بأنها وحدها كفيلة بتفسير كل الظواهر المحيطة بالإنسان من غير حاجة إلى أي عنصر آخر مساعد، فأعلن دعاة الحداثة القطيعة مع كل الصلات التي تربطهم بالماضي، وبعد نشأة هذا المذهب في الغرب بقرون لم يجد أتباع الغرب بدًّا من استقطابه وتبنيه بمختلف امتداداته وتجلياته داخل البلاد الإسلامية، وطرحه مشروعا حضاريا لتخلص الأمة من كل ما يعيق نهضتها، فكان أن دعا الحداثيون إلى هذا المنهج الفكري القائم على تمجيد العقل واعتقاد استقلاله بإدراك الحقائق وتفسيرها بعيدا عن كل العوامل الأخرى كالدين والوحي، وما يصاحب ذلك كله من إنكار للقيم الروحية والأخلاقية التي هي جزء لا يتجزأ من الوجود الإنساني، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري معرفا ببعض المبادئ التي تأسست عليها الحداثة المقدِّسة للعقل والمادة:" والعقلانية هي الإيمان بأن الواقع المادي الموضوعي يحوي داخله ما يكفي لتفسيره دون الحاجة إلى وحي أو غيب، وأن هذا الواقع يشكل كُلاًّ متماسكا مترابطة أجزاؤه برباط السببية الصلبة بل والمطلقة"[2] .

وانطلق أصحاب هذا التيار يحاولون تطبيقه على كل مجالات الحياة في المجتمعات الإسلامية، في إعلان صريح للقطيعة مع كل ما له صلة بالتراث تحت زعم أن الحداثة والتقليد لا يجتمعان،

1 - أسس مالك بن نبي رحمه الله شروط النهضة على عناصر ثلاثة هي: الإنسان، والتراب، والوقت، في إطار نظرة تكاملية تروم القصد إلى الاستثمار الأمثل في تلك العناصر الثلاثة، ينظر تفصيل ذلك كتابه " شروط النهضة": من 83 إلى 160.

2 - الحداثة وما بعد الحداثة، د. عبد الوهاب المسيري:16-17.

ونسوا أو تناسوا أن المبادئ التي يدعون إليها إنما هي تقليد لأسيادهم وأولياء نعمتهم من الغربيين، يقول رائد الفكر الإسلامي الدكتور طه عبد الرحمن ناقدا وناقضا أسس الحداثة الغربية:" إذا كان التقليديون يقلدون المتقدمين [من المسلمين]، فإن الحداثيين يقلدون المتأخرين [من الغربيين]، بل إن تقليد الحداثيين يبدو أشنع من تقليد التراثيين؛ لأن الحداثة والتقليد حسب تعريفهم ضدان لا يجتمعان، في حين أن التراث والتقليد بموجب تقريريهم صنوان لا يفترقان". ومن أشد ما تطاول فيه دعاة الحداثة بمنهجها الغربي الفج، أن سعوا إلى إعادة قراءة نصوص التراث قراءة حداثية، تُقطع فيها الصلة مع كل ما ينتسب إلى الماضي، فكانت قراءاتهم بِدعا من القول، لا يعضدها فيما ذهبت إليه دليل ولا أصل، فجاءت قراءات الحداثيين لنصوص القرآن كما وصفها الدكتور طه عبد الرحمن "بالقراءات البدعية" فقال مبينا بعضا من أسسها الباطلة:" أبى بعض الدارسين إلا أن يبنوا على أن الأمة المسلمة ينبغي أن تحذو في علاقتها بتراثها وتاريخها حذو الغرب في علاقته بتراثه وتاريخه، فجاءوا بقراءات للقرآن تقطع الصلة بالتفاسير السابقة، طامعين في أن يفتحوا عهدا تفسيريا جديدا، ولئن سلمنا بأن هذه القراءات تتضمن عناصر من الابتكار؛ فلا نسلم بأن هذا الابتكار إبداع حقيقي؛ لأن من شأن الإبداع الحقيقي أن يكون موصولا، وهذا إبداع مفصول؛ إذ قَطَع صِلتَه بتراثه، تقليدا للغير، لا اجتهادا من الذات، وكل إبداع هذا شأنه لا يكون إلا بدعة، لذا يتعين أن نبدأ بالنظر في هذه القراءات المفصولة، أو إن شئت قلت القراءات البِدعية، فنوضح كيف أن هذه القراءات تمارس تقليد التطبيق الغربي لركن الإبداع، متوصلة إلى نتائج تمحو خصوصية النص القرآني".[1]

وإذا كان أثر الحداثة واضحا في خلخلة موازين التراث ونقض أصوله فقس على ذلك في كل ما دعت إليه من مجالات الحياة العامة في المجتمعات الإسلامية، وهو ما جعل رواد الفكر الإسلامي يجتهدون في هدم أركانها ونقض بنيانها، ولم يكتفوا بذلك؛ بل ذهبوا إلى وضع أسس الحداثة الإسلامية المتزنة التي تجعل من التراث نقطة الانطلاق ومشعل الاهتداء، ومن هؤلاء الرواد الفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمن، الذي أخضع مفهوم الحداثة بكل امتدادته لعملية تشريح معرفي دقيق، كشف فيه عن تناقضاتها الصارخة وهفواتها الكبيرة، خاصة في كتابيْه" سؤال الأخلاق" الذي بين فيه الهفوات الأخلاقية للحداثة، وكتابه "روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية" الذي لم يكتف فيه بنقض غزل الحداثة الغربية، بل قدم بديلا لها بالدعوة إلى تأسيس

1 - روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية:176.

مشروع الحداثة الإسلامية، واجتهد في رسم معالمه الكبرى. ومن الرواد كذلك المفكر الدكتور عبد الوهاب المسيري وغيرهما كثير.

3- الفكر الإسلامي وقضية العِلمانية.

العِلمانية واحدة من أهم القضايا التي أسالت مداد رواد الفكر الإسلامي المعاصر، في إطار سعيهم للرد على أطروحات العلمانيين الداعية إلى فصل كل ما له صلة بالدين عن الحياة العامة، وليس عن الدولة فحسب، ولئن تقارب مفهوم العلمانية مع الحداثة الغربية في أنه أحد وجوهها وصورها، إلى درجة أن البعض رادف بينهما كما يذكر ذلك الفيلسوف الدكتور طه عد الرحمن[1]، فإنهما يتفقان على كلِّ في الدعوة إلى القطيعة مع المبادئ الدينية.

وتعود أسباب نشأة العلمانية في أوربا إلى تجربتها المريرة والبئيسة مع الدين المسيحي المحرف؛" فقد كان الدين بالنسبة إليها ظلاما وجهلا واستبدادا وانصرافا عن عمارة الأرض؛ ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً إِبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾،[2] وَوَقَر في حِس أوربا أن هذا هو الدين، ولذلك نفرت منه ثم هاجمته وأبعدته عن واقع الحياة، وحبسته في نطاق ضيق في ضمائر الناس، إن بقي للناس ضمائر بعد أن أُبعدوا عن الدين. وأوربا في هذا معذورة من ناحية، ولكنها من ناحية أخرى غير معذورة:

معذورة في النفور من "ذلك الدين" والسعي إلى تقليص نفوذه ونزع سلطانه وحبسه في أضيق نطاق ممكن... بل نبذه والخروج عليه جهرة...، ولكنها غير معذورة في أن يكون هذا موقفها من "الدين" بعامة؛ الصحيح منه وغير الصحيح".[3]

فمن هنا تكونت فكرة العلمانية باعتبارها مذهبا فكريا نشأ في وسطٍ شهد صراعا كبيرا بين دين محرف مارس كل أنواع الاضطهاد على أتباعه، فكفهم عن الإقبال على هذه الحياة وعمارتها، وأسس لمحاكم التفتيش البابوية التي قتل فيها خلقا كثيرا، كما مارس رجاله كل أنواع الاستبداد السياسي والاجتماعي، ليتوج بقتل العلماء؛ علماء الطبيعة الذين جاءوا بحقائق مناقضة لما تدعوا إليه

1 - روح الحداثة، المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية: 23.
2 - الحديد:27
3 - العلمانيون والإسلام، محمد قطب:07.

الكنائس، وغيرها من صور الظلم والبغي، فكان من الطبيعي أن تتولد منه تلك النفرة الكبيرة من أتباعه، فقرروا عزله عن كل مجالات الحياة، ومن هنا تُعرِّف دائرة المعارف البريطانية العلمانية بأنها: "حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها". لتصبح بذلك مذهبا تتبناه الدول الأوربية في كل شؤون الحياة من السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلم والأخلاق والفن[1]...

ثم ما لبثت عدوى هذا المذهب أن انتقلت إلى المجتمعات الإسلامية المعاصرة [2]، في محاولة من دعاة هذا التيار إلى إسقاط واقع أوربا على واقع المسلمين، فنادوا بتحييد الدين عن كل ما له صلة بالحياة الإنسانية، وصار للعلمانية مفهوم متولد من طبيعة ما نادوا به داخل البلاد الإسلامية في علاقتها بشريعة الإسلام، فهي تعني عندهم: " عزل الدين عن حياة الإنسان فردا كان أو مجتمعا، بحيث لا يكون للدين سلطان في توجيهه أو تثقيفه أو تربيته أو التشريع له، وإنما ينطلق في مسيرة الحياة بوحي عقله وغرائزه أو دوافعه النفسية فحسب، وبعبارة أخرى تعني العلمانية: عزل الله تعالى عن حُكم خَلقه، فليس له عليهم سلطان؛ كأنما هم آلهةُ أنفسِهم، فهم يفعلون ما يشاءون، ويُحكِّمون ما يريدون، ولا يُسألون عما يفعلون".[3]

لقد أخطأ العلمانيون خطأ كُبّاراً حين حاولوا استنبات جذور العلمانية في المجتمعات المسلمة، ضاربين بعرض الحائط كل خصائص الشريعة الإسلامية التي لا تشبه في قليل أو كثير الديانة المسيحة المحرفة التي صدت الإنسان عن العطاء، فأوجبت على أتباعها طرحها في الكنائس وعزلها عن الحياة. أما شريعة الإسلام فهي منهج حياة شامل يفيض بروح العطاء الإنساني، ويُلبي كل احتياجات الخلق المادية والروحية، فهي نظام متكامل استوعب من خلال تشريعه الرباني المعصوم قضايا الإنسانية كلها دِقِّها وجِلِّها، من العبادة إلى السياسة إلى الاقتصاد إلى الاجتماع إلى الأخلاق... ومناداة العلمانيين بتحييدها عن الحياة هو إعلان صريح عن انتحار البشرية على أعتاب الحياة

1 - تنظر تجليات العلمانية في هذه المجالات كلها كتاب العلمانية: نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة" للدكتور سفر الحوالي: 209- 493. وكذا مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب: 463-494.

2 - يذهب الدكتور سفر الحوالي في كتابه "العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة"، إلى ذكر أسباب انتشار هذا المذهب في المجتمعات المسلمة المعاصرة، ويحددها في عوامل داخلية ترتبط بواقع الأمة المتخلف من كل النواحي، وهو ما هيأ في بعضها القابلية لاحتضان مثل هذه المذاهب، كما يرتبط بعوامل خارجية في سياق بسط هيمنة الغرب على المسلمين، ينظر تفصيل هذه العوامل في كتابه السابق الذكر: 507-560.

3 - التطرف العلماني في مواجهة الإسلام، د. يوسف القرضاوي:14.

المدنية المعاصرة التي ينادي بها هؤلاء، فجاءت مبادئها مناقضة للفطرة الإنسانية الميالة إلى الدين في كل حركاتها وسكناتها، افتقارا لتوجيهاته، وطلبا لمراتب الكمال الإنساني بهديه وتعاليمه، بله أن نتحدث عن مجتمعات تلبست بهذا الدين الإسلامي في كافة مناحي حياتها لقرون عديدة وأزمنة مديدة، وهو ما يكشف بطلان هذا المذهب – العلمانية – وعدم صلاحيته للمجتمعات المسلمة بالنظر إلى ما يَعُج به من التناقضات الصريخة مع خصوصيات هذه المجتمعات، " ويؤكد هذا التناقضَ أن الشريعة الإسلامية منهجٌ شامل لحياة الإنسان كلها فردية واجتماعية، روحية ومادية، دينية وسياسية، ثقافية واقتصادية، محلية ودولية. وهي كما قال الفقهاء:" حاكمة على جميع أفعال المكلفين"، والعلمانية كذلك تريد أن توجه الحياة كلها من خلال فلسفتها المقطوعة عن السماء، فلا بد من هذا الصدام"[1].

إن أقرب وصف يعبر عن هذا المذهب هو أنه تيار " اللادين"[2]، القائم على التمرد على القيم والمبادئ الدينية، والذي ترجم دعاتُه حجم البُغض والكراهية للشريعة الإسلامية، لذلك سَخَّروا كل ما يملكون لأجل نشره وبثه في كل الأوساط، سواء في نطاق الحركات الفكرية ابتداء، والتي كانت لها مشاريع تخريبية للدين في المجتمعات المسلمة، أو في نطاق تعميم كثير من المفاهيم في الأوساط العامة؛ بحيث يرفض بعض عوام الناس - مع سلامة قصدهم في كثير من الأحيان - أن تربط له الدين بالسياسة أو بالاقتصاد أو بالأخلاق أو بالفن، وهو ما يُظهر نفاذ هذه المبادئ إلى حياة بعض فئام الناس.

لهذا ولغيره، وحتى لا تعمى على المسلمين الأنباء أو تتلاعب بعقولهم الأهواء، سعى رواد الفكر الإسلامي إلى كشف سوءات هذا المذهب العلماني من خلال مؤلفاتهم العديدة، التي كان لها الفضل في دحر كثير من شرور هذا المذهب عن المجتمعات المسلمة، وتبصير المسلمين بخطره الشديد.

1 - التطرف العلماني في مواجهة الإسلام، د. يوسف القرضاوي:15.
2 - مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب:446.

4- الفكر الإسلامي والعولمة.

مهدت كثير من التيارات والمذاهب السابقة خاصة منها الحداثة والعلمانية الطريق للتوحش المادي في الحياة الإنسانية المعاصرة، وقد توافق ذلك مع ما حققه التيار الرأسمالي من نجاحات آلت إلى هيمنته وتبني جُلّ الدول والمدنيات المعاصرة له، فبدأت الحياة البشرية تتنفس تلك المبادئ في بيئتها الضيقة، لتنتقل إلى تعميمها على أرجاء المعمورة وتسعى لغزو كل الشعوب بها، خاصة مع تطور التقنية والوسائل التكنولوجية التي أسعفتها في تحقيق مرادها.

في هذا السياق نشأت العولمة باعتبارها تيارا فكريا بمبادئ اقتصادية ومخططات استراتيجية عالمية، قصد القائمون عليه إعادة تشكيل موازين الفكر العالمي على اختلاف صوره ومعالمه ومناهجه، سعيا لتنميطه في نطاق ضيق يعكس صورة واحدة هي صورة سدنة العولمة فيما يشبه عملية استنساخ ممسوخة لمنهج تفكيرهم على كل أنماط التفكير العالمية.

لقد اختلف الدارسون في تحديد معنى موحد للعولمة التي أريد منها توحيد كل شيء في هذا العالم، واختلافهم ذاك مرده إلى طبيعة التعقيدات التي تلف مكوناتها[1]. لكن يكاد الكل يتفق على ما ترمي إليه العولمة من سعي حثيث من أصحابها إلى توحيد العالم على قيم ومفاهيم ومبادئ تغزو فكر إنسان العصر وتسطو على معتقده طمعا في تنميط سلوكه، بحيث لا يستطيع الانعتاق منها، لأنها تخيم على الفضاء الذي يعيش ويتحرك في نطاقه، فأضحت تفرض عليه نمطا واحدا ليس معه في الغالب خيارات أخرى للعيش، في عالم أصبح يعيش بسبب تطور التقنية في فضاء أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة.

هذه القرية أصبحت محكومة بقيم جهة بعينها، تسعى إلى تنميطها وصياغة مبادئها في قالب يتناسب مع طبيعة ما تدعو إليه، في مقابل إلغاء كل القيم والأخلاق والعادات وكل الخصوصيات التي تميز أمة عن أخرى، تلك أهم أسس العولمة التي يقول عنها الدكتور طه عبد الرحمن في تعريفه لها:" العولمة هي تعقيل [أي تقييد] العالم بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات والأفراد عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: "سيطرة الاقتصاد في التنمية" و" سيطرة

1 - روح الحداثة، د. طه عبد الرحمن:77.

التقنية في حقل العلم" و"سيطرة الشبكة في حقل الاتصال."[1] ومن هنا قامت العولمة على أساس تنميط العلاقات في العالم " بحيث يصير العالم كله نطاقا اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا واحدا يؤلِّف بين أفراده البشرية كافة، وقد طاب لبعض الدارسين والهيئات أن يعبروا عن هذا التأليف بتشبيهات طارت في الناس كل مطار، فقالوا: " القرية الكونية" والمدينة الكونية" ..."[2]

لقد قامت العولمة بنوع من التسلط على القيم الحاكمة لخصوصيات الشعوب، المشكِّلة لأسس علاقاتها، فغزتها بشدة حتى انمحى أثرها، في عملية اصطلح عليها الدكتور المهدي المنجرة ب" الاستعمار الجديد" للشعوب بصيغته الجديدة غير المألوفة، وفي ذلك يقول مخاطبا الدوائر الغربية: "ففي حقبة الاستعمار الجديد لستم في حاجة إلى قوات الجيش للسيطرة على البلدان، إذ بإمكانكم فقط استخدام البنيات التحية الموجودة بعين المكان".[3] والنتيجة الطبيعية للعولمة أن أصبح جزء كبير من عالم اليوم تحكمه قيم تُرغمه على نمط موحد من التفكير المُصطبِغ بصبغة المادية الجشعة، المقدس لفكر الإنتاج، المعتقد أن الاقتصاد أساس كل تنمية، وأن الربح فوق كل اعتبار، وصار ينظر لكل شيء بهذا الاعتبار بما في ذلك الإنسان نفسه الذي فقد قيمته الإنسانية لصالح سلطة المال والاقتصاد، " فبالنسبة للعولمة كل شيء وكل فرد وجب أن يُعرض في السوق".[4] وبهذا أذكت العولمة روح التغول الرأسمالي المتوحش، وقد ساعدها في ذلك تطور الإنتاج وتقدم التكنولوجيا[5]، لينتهي الأمر بهيمنة النظام العالمي القائم على القطب الواحد، وهو القطب الرأسمالي في صورته الأمريكية تحديدا، وهو ما صير العولمة مرادفة "للأَمْرَكَة" أو "أمركة العالم"، والتي طفقت تقيد العالم بقيمها المنمِّطة للتفكير الإنساني، بل واعتبارها النموذج الأمثل الذي يملك إسعاد البشرية كما يُنبه على ذلك صاحب كتاب " نهاية التاريخ والإنسان الأخير" الأمريكي ذو الأصول اليابانية "فرانسيس فوكوياما"، الذي مجَّد قيم الغرب الرأسمالية، واعتبرها مفتاح السعادة الإنسانية، بل وأرقى ما وصل إليه الفكر البشري على مستوى التجارب؛ "إنه الإنسان الأخير في مملكة الحرية".[6]

1 - روح الحداثة، د. طه عبد الرحمن:78.
2 - روح الحداثة، د. طه عبد الرحمن:78.
3 - عولمة العولمة:22.
4 - عولمة العولمة، د. المهدي المنجرة:16.
5 - الفكر الإسلامي النشأة والتطور والتحديات المعاصرة، د. رعد شمس الدين الكيلاني: 247.
6 - "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" فرانسيس فوكوياما: 265-266.

أمام هذا الحِمْل الثقيل للعولمة المكتسحة لحدود القارات والبلدان من غير استئذان، وجد الفكر الإسلامي نفسه أمام مشروع عالمي يوشك أن يَنقض جهود رواد حركة الوعي والصحوة في البلاد والمجتمعات الإسلامية المعاصرة، بما يحمله من قدرة خارقة - في ظل إمكاناته القوية - على تذويب معالم الهوية والثقافة والخصوصية الإسلامية في بوثقته، وهو ما دفع رواد الفكر الإسلامي إلى العمل على التصدي لموجاته العاتية تخفيفا من حدة وقعها على المجتمعات المسلمة، لتنضاف جهودهم إلى جهود جهات أخرى في بيئة الغرب نفسها، ممن أدركت خطر العولمة على مستقبل البشرية، ففزعت بعض المراكز والجامعات عندهم محاولة التصالح مع القيم والأخلاق الإنسانية[1] التي طمست العولمة معالمها ، ليقينها من مسير البشرية بالعولمة إلى الانتحار الحضاري.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

1 - يشير الدكتور طه عبد الرحمن إلى جهود الغربيين في محاولتهم إعادة الصلح مع القيم والأخلاق في إطار حديثه عن سبل درء الآفات الخلقية للعولمة بقوله:" الملاحظ هو أن هذه الأزمة الأخلاقية تلاها بالفعل وعي أخلاقي خاص، وتجلى هذا الوعي في مظاهر شتى منها تقوية تدريس مواد الأخلاق، وإحداث كراسي لها في المعاهد والجامعات، وعقد المؤتمرات والمناظرات حول الإشكاليات الأخلاقية المستجدة(...) وتأسيس حركات إصلاحية ومنظمات إنسانية، ومنها كذلك فتح أبواب في علم الأخلاق(...) فجرى الخوض في "أخلاقيات الحياة" و "أخلاقيات البيئة" و "أخلاقيات الإعلام" و "أخلاقيات الإدارة" و " أخلاقيات الشغل". روح الحداثة:85.

فهرست الموضوعات

_Toc40528175

تقديم..... 1

التعريف بالفكر الإسلامي..... 3

تمهيد 3

1-مفهوم الفكر الإسلامي..... 4

2-الفكر الإسلامي وإشكال المصطلح..... 5

3- لفرق بين الفكر الإسلامي والدين أو الوحي الإسلامي..... 5

4- الفكر الإسلامي وإشكال المرجعية والمنهج..... 7

5- محاذير تتهدد هذا الفكر..... 9

الفكر الإسلامي: النشأة والتطور(1) 10

تمهيد 10

الفكر الإسلامي القديم: النشأة والتطور..... 11

1-الفكر الإسلامي وقضايا العقيدة والفلسفة، المنهج والأسس. 11

2- الفكر الإسلامي والقضايا الأصولية والفقهية الاجتهادية..... 13

3- الفكر الإسلامي وقضايا الفكر الصوفي..... 15

الفكر الإسلامي: النشأة والتطور(2) 17

الفكر الإسلامي الحديث. 17

تمهيد..... 17

أولا- تجديد الفكر الإسلامي الحديث..... 19

1- حركة الشيخ محمد بن الوهاب..... 19

2- الحركة السنوسية..... 20

3- مدرسة جمال الدين الأفغاني السلفية وكبار روادها. 21

4- الحركة السلفية الوطنية بالمغرب..... 23

ثالثا- المراحل الكبرى لتاريخ الفكر الإسلامي الحديث..... 24

مصادر الفكر الإسلامي (1-2) 26

تمهيد..... 26

1- الوحي الرباني المصدر الأساس للفكر الإسلامي..... 27

2- ثقافة الحضارات الإنسانية..... 28

خصائص الفكر الإسلامي (1-2) 30

تمهيد 30

الخاصية الأولى: الاستمداد المباشر من الوحي..... 30

الخاصية الثانية: الصبغة الإيمانية العقدية لهذا الفكر..... 31

الخاصية الثالثة: الصبغة العِلمية لهذا الفكر..... 32
الخاصية الرابعة: الوسطية..... 33
تحديات الفكر الإسلامي المعاصر (1-2)..... 35
تمهيد..... 35
• إثارة الشبهات حول دين الإسلام، والسعي لتشويهه في نفوس المسلمين..... 36
• الطعن في اللغة العربية والسعي لتجريدها من كل ما تحمله من المعاني باعتبارها لغة الوحي..... 39
• هدم منظومة الأخلاق في المجتمعات الإسلامية..... 40
• إحياء النعرات القومية السابقة للإسلام كالفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية... في البلاد الإسلامية..... 42
• العمل على زرع بعض الحركات المنحرفة عقيدة وسلوكا ومنهجا في المجتمعات المسلمة وتقديمها على أنها تمثل حركات النهضة الحديثة..... 43
قضايا الفكر الإسلامي المعاصر (1-2)..... 45
تمهيد..... 45
1- الفكر الإسلامي وسؤال النهضة في المجتمعات المسلمة المعاصرة..... 45
2- الفكر الإسلامي وسؤال الحداثة وما بعد الحداثة..... 47
3- الفكر الإسلامي وقضية العِلمانية..... 49
4- الفكر الإسلامي والعولمة..... 52